

صلاح الدين الأيوبي

د. عبد المنعم ماجد



923.156
S159maA

تاريخ المصريين

٧

صلاح الدين الأيوبي

د. عبد المنعم ماجد

أستاذ التاريخ الإسلامي

بكلية الآداب - جامعة عين شمس



المكتبة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧

٤٤٥-٢١٤٥٠

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

الاخراج الفني : محمد قطب

الغلاف : أسامة سعيد

تقديم

قد يعجب بعض القراء لنشر كتاب في سلسلة « تاريخ المصريين » - عن صلاح الدين الأيوبي ، على أساس أن صلاح الدين الأيوبي لم يكن مصرياً ! •

وفي الواقع أنه يجب علينا عند تحديد هذه المصطلحات أن نضعها في إطار العصر التاريخي الذي وقعت فيه الأحداث ، أو ظهرت فيه الشخصيات التاريخية • فليس في وسعنا أن نتحدث عن « مصري » أو « عربي » في العصر الإسلامي ، لأنه عصر لم تكن قد ظهرت فيه المصطلحات القومية الحديثة ، أو الدول القومية الحديثة ، وإنما كان جميع المصريين ينتمون إلى العالم الإسلامي الفسيح ، ولم يكن قد تولد فيهم أي شعور قومي مصري ، وإنما كان الشعور الوحيد الذي يسود بينهم هو أنهم جميعاً مسلمون •

وهذه القاعدة تنطبق على حكام مصر ، ومنهم صلاح الدين الأيوبي ، فلم يكن يشعر بأنه كرهى يحكم شعباً مصرياً ، وإنما كان يشعر فقط بأنه مسلم يحكم شعباً مسلماً •

على أن إقامة صلاح الدين دولته في مصر ، ونقله حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين من الشام إلى مصر ، قد أدرجه - بالضرورة - في قائمة حكام مصر ، فأصبح مصرياً وطنياً ، بقدر ما هو مسلم ينتمى إلى العالم الإسلامي الفسيح •

والدراسة التي تقدمها في هذا العدد من السلسلة ، كتبها
الأستاذ الدكتور عبد المنعم هاجد ، أستاذ التاريخ الإسلامى
بكلية الآداب جامعة عين شمس ، وصاحب العديد من الدراسات
التاريخية فى مجال تخصصه ، التي تجعل منه واحدا من أبرز
مؤرخى التاريخ الإسلامى فى مصر .

وهى دراسة جادة رجع فيها الدكتور عبد المنعم هاجد الى عدد
ضخم من المصادر الإسلامية الأصلية ، واستند فيها الى الكثير من
الأسانيد التاريخية ، وقد عالج فيها أحوال المسلمين السياسية
قبل مجئ صلاح الدين الأيوبي ، ثم تناول ظروف ظهوره على
المسرح السياسى ، وقضائه على الخلافة الفاطمية ، التي تردت فى
الضعف والفساد حتى استعانت بالصلبيين ، ثم قضائه على الدولة
الأتاكية ، ووراثته ملكها ، وتكوينه أكبر امبراطورية فى الشرق .
ثم تفرغه لقتال الصليبيين وتغلبه على أعتى الجيوش الأوروبية ،
تخليصه الأراضي المقدسة ، وابعاده خطر الفرنجة على مصر .

ويقضى أن القارئ سوف يستمتع بهذه الدراسة التاريخية
القيمة .

د . عبد العظيم رمضان

تمهيد :

التاريخ أستاذ يقرر دروس الحوادث ، وما يخرج منها من
عظة ، فباستعراضنا تاريخ الناصر صلاح الدين وعصره ، نجد أنه
يذكرنا بحوادث عصرنا ، ظهر حينما ادلهمت أحوال المسلمين فى
الشرق بضعفهم وتفرقهم ، وطمع فيهم أعداؤهم من دول أوربا ،
وأنشبهوا أظافرهم ، فاقتطعوا أجزاء من بلادهم ، حينئذ ظهر البطل
الذى كان قد خلقته المواهب ، وصهرته التجربة ، ليأخذ دور المكافح
عنهم والمنقذ لهم من عدوهم ، بحيث كان ظهوره أشبه بظهور رجل
من رجال الأساطير ، فكان بحق بطلا من أبطال التاريخ .

ونلمس فى تاريخه شخصية أقدر رجل على فهم ظروف عصره ،
وكيفية معالجتها ، كما رأى فى الدعوة لانتكثل الإسلامى السبيل
الفعال لدرء خطر الأوربيين ، المتعطشين لدماء المسلمين ، فدعا اليه
جميع المسلمين من مختلف الأجناس سواء أكانوا عربا أم مصريين
أم مغاربة أم تركا أم أكرادا أم إيرانيين . كذلك وضع نصب عينيه
فى المكان الأول من سياسته اتحاد مصر والشام ، ليكون أساسا لما
يجب أن تكون عليه الحال ، كلما دق ناقوس الخطر ، وظهر طمع
الطامعين . فبين المؤرخون : أن صلاح الدين كان يقاتل بعسكر من
الشام وبعسكر من مصر ، التي جاءت له - على حد تعبير مؤرخى
عصره - بأهلها سواء من السمر المصريين ، أو من سودان مصر .

وعلى النقيض نجد من آلامه وشكواه ، أن شعوب الترك والايروانيين
انشغلت عنه .

وانى لأرجو أن يكون هذا الكتاب اسهاما منى فى ابراز أهمية
شخصية البطل وعصره ، ليعيها أهل الشرق فى أذهانهم ، ويأخذوا
منها الموعظة . وان كنت أعتبره مجهودا متواضعا فى سيرته المجيدة ،
يظهر بعد أن ظهرت كتب كثيرة قيمة عنه ، ليست من تأليف
مؤرخى عصره ، الذين كرسوا له التراجم المسهبة فحسب ، بل ومن
تأليف مؤرخين حداثيين من مختلف الأجناس والأديان تناولوا سيرته
الرائعة بشغف كبير .

المؤلف

الفصل الأول

أحوال المسلمين السياسية •

لا نستطيع أن نعرض سيرة الناصر صلاح الدين ، الا اذا
ألمنا بالأحوال السياسية فى عصره ، ليظهر منها الى أى حد بلغ
ضعف المسلمين وانقسامهم ، وطمع أهل أوروبا فى بلادهم ، وهى
الأحوال التى كان لها النصيب الأكبر فى ظهوره على مسرح التاريخ ،
ونلخصها بالكلام فى ثلاثة عناصر : السلاجقة ، والصليبيين ،
والفاطميين .



أما السلاجقة : فان ظهورهم كان فى فترة احتضار الخلافة
العباسية . فمئذ مدة كانت هذه الخلافة التى تحكم المسلمين ضعيفة ،
قد انقسمت أملاكها الواسعة بين حكام مستقلين ، بحيث لم يتبق
لها غير بغداد والعراق ، وأصبح الخليفة نفسه أشبه بشيخ لا سلطان
له تحت وصاية المتغلب عليه من قواده الأتراك الأقوياء ، فظهرت
لهم وظيفة امرة الأمراء ، التى أبطلت الوزارة والدواوين ، وأصبح
لتوليها كل السلطة من دون الخليفة . ولهذا أطلق المؤرخون على
الخلفاء العباسيين : المستضعفين ، كما أطلق المؤرخون الحديثون على
خليفة تركيا فى وقت ضعفها الرجل المريض ، فقال الشاعر يصف
ضعف الخليفة العباسي :

خليفة فى قفص ، بين وصيف وبغا

يقول ما قالاه ، كما تقول البغا

ولم يقف ضعف الخليفة العباسى عند حد أن يسيطر عليه رجل أقوى منه ، ولكن تطور الأمر الى أن سيطرت عليه أسرة شيعية تخالفه فى المذهب وتحكم معه وارثا عن وارث . وفى أثناء تنازع القواد الترك المتغلبين عليه فى بغداد ، تمكنت أسرة بنى بويه الشيعية - على اسم جدها أبى شجاع بويه - من دخول العراق ، حيث كان أجدادها يعيشون كجند مرتزقة أو على صيد السمك . وكان أول ظهورها بين قبائل الديلم البدوية ، وهى من أصل فارسي تأخرت فى إسلامها ، وتقيم فى الجنوب الغربى من بحر قزوين ، ولم يكن الأمويون ومن بعدهم العباسيون قد تمكنوا من فتح بلادهم ، الا أنهم اكتسبتهم الدعوة الشيعية وتحولوا الى الاسلام فى أواخر القرن الثالث الهجرى - التاسع الميلادى ، ومنذ ذاك بدأت تظهر لهم أطماع فى أملاك الخلافة ، على أيدي زعماء لهم . ولكنهم على أيدي بنى بويه ، كونوا دويلات قوية فى ايران ونواحيها ، ودخل أحمد بن بويه بهم الى بغداد سنة ٣٣٤ - ٩٤٥ ، وتلقب بمعز الدولة وعزل الخليفة المستكفى ، وولى بدله المطيع لله حتى يطيعه . فكان بنو بويه مع الخلفاء العباسيين ، أكثر استبدادا من القواد الترك السابقين ذلك لأنهم كشيعية لم يكن عندهم باعث دينى على الطاعة للخلفاء الذين منزههم السنة ، فكانوا يعزلونهم ويسملون عيونهم أو يقتلونهم . كذلك أصبح الواحد منهم ، يسك العملة باسم شاهنشاه أى ملك الملوك ، ويخطب له على المنابر ، ويقرن اسمه باسم الخليفة العباسى فى خطب المساجد ، وتضرب له الدفوف - الطبول - أمام قصره فى الضحى والعشى ، وهذا تكريم لم يكن يحظى به غير الخليفة من قبل .

ولكن نازع البويهيين الشيعة فى السيطرة على الخليفة العباسى أسرة السلاجقة ، على اسم سلجوق بن يقاق أو دقاق ، الذى كان أبوه من زعماء قبائل الغز التركية . ويظهر من تاريخ السلاجقة الأول أنهم كانوا يعيشون على نهر اتل (القولجا) ، فى جنوب روسيا الحالية ، يخدمون ملوك الترك فى وسط آسيا ، وأنهم وثنيون أو مسيحيون وإن كان يبدو أن سلجوقا ، هو أول من أدخل الغز فى الاسلام ، على أساس المذهب السننى - مذهب الخلافة العباسية - كما انتقل بهم الى أراضي بلاد ما وراء النهر الاسلامية .

وقد بدأ ظهور السلاجقة السياسى ، منذ أن تدخلوا مع بقايا السامانيين - إحدى الدول الفارسية فى بلاد ما وراء النهر - إذ أن السامانيين كانوا يطلبون عون الغز ضد أعدائهم من الدول المجاورة فى وسط آسيا . ولما ساءت علاقة الغز بالسامانيين ، انتقلوا الى بلاد خراسان فى جنوبى منطقة ما وراء النهر ، بقيادة طغرل بك حفيد سلجوق . وهى بلاد واسعة كانت تخضع لدولة مجاهدة تقوم على حدود الهند ، هى الدولة الغزنوية . ولكن حدث نزاع جديد بين الغز ، وهذه الدولة الغزنوية ، فحاربها السلاجقة واستولوا على أملاكها منذ سنة ٤٣٠ - ١١٣٨ ، وانتشروا فى نواح متعددة حتى دقوا أبواب العراق . فلما استدعاهم الخليفة العباسى القائم بأمر الله سنة ٤٤٧ - ١٠٥٥ ، لانقاذه من الشيعة البويهيين ، الذين كانوا قد طردوه من منصب الخلافة ، أسرع طغرل بك بتلبية نداءه ، وأعادته الى رتبته . وبذلك أصبح السلاجقة السنيون أصحاب السيطرة فى بغداد ، حيث اتخذ طغرل بك لقب السلطان ونقشه على العملة الاسلامية ، لأول مرة ، وهو اللقب الذى ورد فى القرآن بمعنى القوة والنفوذ ، وكان يطلق على الخلفاء وحدهم .

ومن المحقق أنه لم تتحسن أحوال الخلافة العباسية بمجىء

السلاجقة ، الا من الناحية الروحية ، بالقضاء على الدولة البويهية الشيعية ، التي كانت تسيطر عليهم وتخالفهم في المذهب ، اذ أن المسألة لم تنعد تغيير المتغلب عليهم : Changer de maitre ولكن الأهمية الكبرى لمجيء السلاجقة جاءت من أنهم كانوا أول هجرة تركية حقيقية ، فتحت الباب على مصراعيه لهجرة أفواج الأتراك من وسط آسيا نحو العالم الاسلامي ، مما جعل التاريخ الاسلامي الى عصرنا الحديث القريب ، يتسم بسيادة الأتراك .

وكانت دولة السلاجقة في أول أمرها ذات آمال كبار في اخضاع المسلمين جميعا للخلافة السنية القائمة في بغداد ، وخصوصا أنهم أظهروا لها احتراماً كبيراً ، على عكس البويهيين الذين أدلوا وعملوا على الغائها . ففي عهد سلطانها ألب أرسلان ، الذي جاء بعد وفاة عمه طغرل بك في سنة ١٠٦٣/٤٥٥ ، نجد أن السلاجقة انساحوا من العراق الى شمال الجزيرة ، وتمكنوا من السيطرة على قبائل الكرد والأرمن ، وهي عناصر مجهولة الأصل كانت تعيش بجوار الفرس منذ القدم ، ونشأت لهم دويلات مستقلة نتيجة لضعف الخلافة العباسية . وأكثر من هذا أنهم وصلوا الزحف الى أبواب آسيا الصغرى وحاربوا بيزنطة دولة الشرق المسيحية الكبرى ، التي عرفت للعرب بالروم لأنهم وان كانوا يونانيين في الأصل فإنهم اعتبروهم ورثة الرومان في الشرق ، فهزموا جيوشهم وأسروا امبراطورهم رومانوس ديوجينيس «Romanos Diogenes» - يسميه العرب أرمانوس - في موقعة ملاذكرد (أو مناذكرد) على الفرات الأعلى سنة ١٠٧١/٤٦٣ ، فجاءوا به منبطحاً على وجهه ، ليضع ألب أرسلان قدمه على رقبته على العادة التركية ، وان سمح لهذا الامبراطور بالافتداء . وأهمية النصر السلجوقي على البيزنطيين ،

أن السلاجقة فتحوا أبواب آسيا الصغرى الشرقية أمام هجرات الترك ، فبقوا فيها الى وقتنا الحاضر .

وفي عهد ملكشاه ، الذي خلف أباه ألب أرسلان في سنة ١٠٧٢/٤٦٥ ، استولى الترك السلاجقة على الموصل وحلب ، وقضوا على سيطرة القبائل العربية في اقليم الجزيرة ، ثم زحفوا على الشام بقيادة تتش بن ألب أرسلان ، الذي قرر له أخوه ملكشاه فتح الشام ومصر والمغرب ، فأخذ دمشق ثم مدينة القدس وغيرها ، ووصلت جيوشه الى حدود مصر ، التي كانت بها الخلافة الفاطمية الشيعية .

ولكن هذه الدولة السلجوقية الفتية سرعان ما دب فيها دبيب الانفصال بعد وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢ / ٤٨٥ ، فقد كانت تحمل في أساس نشأتها جرثومة الانحلال . اذ كان السلاطين السلاجقة قد جروا على عادة توزيع أملاكهم بين أبنائهم الأمراء ، على أن يكفلوا تربيتهم الى قوادهم الذين يسمونهم بالأتابكة : وهي لفظة تركية مفردتها أتابك ، مركبة من كلمة « آتا » بمعنى أب ، وكلمة « بك » بمعنى السيد أو الأمير ، أي الذي يربي أولاد الملوك ، حيث كان هؤلاء أشبه بالوزراء المستبدين . فلما توفي ملكشاه وترك من الأولاد أربعة ، انقسمت دولته بينهم في العراق والجزيرة وایران وخراسان ، فضلاً عن أنهم ومن بعدهم أبنائهم كانوا يتنافسون على السيطرة على الخليفة الضعيف في بغداد ، وكان من يسيطر عليه منهم يتخذ لقب سلطان . يضاف الى ذلك أن أبناء تتش ومعهم أتابكتهم كانوا يتنافسون في الشام ، وأن أعمام ملكشاه وأبناءهم كانوا يتنافسون في ولايات المشرق بكرمان وبلخ وخوارزم وطخارستان ، كما أن بعض أقارب السلاطين أو الأتابكة كانوا يستقلون ببلاد صغيرة أو كبيرة مبعثرة هنا وهناك ، مثل حلب والموصل وأذربيجان وآسيا الصغرى ، وغير ذلك . والخلاصة أن

الدولة السلجوقية التي كان يخضع لها مسلمو الشرق ، أصبحت بعد ملكشاه عبارة عن دويلات متحاسدة تخضع لأبناء السلاطين وأقاربهم وأتابكتهم ، غمرتها حروب داخلية ، مما يدل على سوء حال المسلمين في هذه المنطقة .

★ ★ ★

العنصر الثاني الهام وهو الصليبي : ونحن نعرف أنه وجدت عداوة مريرة بين أمم النصرانية والاسلام ، منذ أن أخذ المسلمون يمدون نفوذهم نحو البحر الأبيض ، حيث نفوا البيزنطيين الى أقصى بلادهم في آسيا الصغرى ، فسيطروا في عهد الخلفاء الراشدين على أملاكهم في سورية والجزيرة ومصر وأرمينية ، وقبرص ورودس ، أى على معظم شرق البحر الأبيض ، الذى يعرف في أوربا باسم الليفانت «Levant» . وسيطروا في عهد الخلفاء الأمويين على المغرب والأندلس ، وعلى الجزائر الواقعة قبالة ساحل الأندلس المعروفة بالجزائر البحرية « البليار » ، وعلى سردينيا وأقريطش « كريت » أمام لوبية (ليبيا) ، ومعظم هذه البلاد والجزائر كانت للبيزنطيين اليونان أو للأوربيين المعروفين للعرب بالفرنجة ، أى أن الاسلام سيطر أيضا على معظم غربى البحر الأبيض . ولما جاءت دولة بنى الأغلب في شمال افريقية ، مستقلة عن الدولة العباسية ، استولت على صقلية في سنة ٢١٢/٨٢٧ ، ثم على مالطة في سنة ٢٢١/٨٣٥ - ٦ ، أو في ٢٥٦/٨٦٩ - ٨٧٠ ، وفتحوا جنوب إيطاليا وهى كالبريا التي سماها العرب قلمورية ، فاستولوا عليها في غارات متعددة ، ووصلوا الى رومة - رومنة - في سنة ٢٣١/٨٤١ ، وبها يسكن البابا الذى هو رئيس النصرانية الغربية ، ودخلوا نهر التيبر وأحرقوا المدينة ، ونهبوا كنائس القديسين بطرس «San Pietro» وبولس «San Paolo» ، واضطر البابا ليون

الرابع ان يختبئ ، ثم لما أسس الفاطميون خلافتهم في شمال افريقيا ، يعد قضائهم على الأغلبية ، استولوا على صقلية في سنة ٣٠٣/٩١٥ ، وأخذوا يغزون أيضا في قلمورية ، وهاجموا لمبورديا ، وفتحوا مدينة جنوة في سنة ٣٢٣/٩٣٥ وهاجموا ساحل الريفيرا الفرنسية ، كما غزوا سواحل بلاد الروم ، فلم تسبج النصرانية سفن في البحر الأبيض .

وقد كان من الطبيعي أن تستهدف أمم النصرانية ، الانتقام من المسلمين حينما اشتد ساعدتها . ولم يكن من المنتظر أن يأتى خطرهما ، من جانب دولة بيزنطة اليونانية في الشرق ، فهذه كانت قد تلقت ضربات قاضية من جانب المسلمين ، منذ انسياحهم في حركة الفتوح باستيلائهم على أملاكها في حوض البحر الأبيض ، ومن ناحية أخرى أن حدودها في أوربا كانت تحت ضغط هجرات العناصر السلافية ، وبخاصة البلغار . ولما قويت بيزنطة ، بضعف الخلافة العباسية ، وبسوية مشاكلها مع البلغار ، مدت نفوذها في عهد الأسرة المقدونية التي كانت تحكمها الى امارات المسلمين في شمال الشام وفي اقليم الجزيرة ، واستعادت جزائر رودس وقبرص وأقريطش « كريت » ، وجعلت منها مراكز للاغارة على سواحل المسلمين ، وفي أول عهد الفاطميين الذين كانوا قد نقلوا خلافتهم من المغرب الى مصر ، افتتح البيزنطيون الحروب الصليبية ووصلوا الى قرب القدس عدة مرات ، الا أن الفاطميين أوقفوا تقدمهم ، وأجبروهم على السكون ، وعقدوا الصلح معهم ، وان لم يستطيعوا أن يستعيدوا الجزائر التي استولوا عليها . ولما جاء السلاجقة الى العراق ، زادوا من ضعف البيزنطيين ، وبخاصة منذ أن تقدموا نحو أبواب آسيا الصغرى ، وفتحوها لهجرات قبائلهم ، التي كونت فيها امارة قوية على يد ابن عمه ملكشاه

المسمى سليمان بن قتلمش (١٠٨٦/٤٧٩) ، فأخذت هذه الامارة تقتطع من اراضي البيزنطيين جزءا جزءا ، واتخذت قونية وغيرها بلادا لها ، وكان ملوك اليونان يدفعون لها الجزية . واجمالا أصبحت الدولة البيزنطية لا تكون خطرا كبيرا على المسلمين بأية حال .

ولكن الخطر الحقيقي جاء من أهل أوروبا ، الذين عرفوا للعرب باسم : الفرنجة أو الافرنج ، أو الفرنج «Franks» ، وبلادهم باسم بلاد أفرنجة ، نسبة الى أمة عرفت بهذا الاسم في أوروبا ، فأطلقه العرب على كل أمم أوروبا عموما . وقد جاء الخطر منهم من قبل عناصر شمالية مضطرة عرفت بالنورمان «Normands» ويسمىهم العرب بالتسمية العامة بالفرنج ، ظهوروا في الوقت الذي ظهر فيه السويديون ، وغزوا انجلترا في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ، وتحولوا فيها الى النصرانية ، ثم انتقلوا الى فرنسا ، واستقروا فيها بالمنطقة الشمالية ، التي عرفت باسم نورمانديا ، ثم هجموا على سواحل الأندلس التي بها المسلمون في سنة ٨٤٤/٢٢٩ - وعرفوا فيها باسم المجوس - وعلى سواحل الأديراتيك حاولوا بقيادة زعيمهم روبر جيسكار «Robert Guiscard» أن يقضوا على نفوذ الدولة البيزنطية في هذه الناحية . وحينما أوقف البيزنطيون تقدمهم ، اتجهوا الى جنوب ايطاليا وصقلية ومالطة ، وكانت خاضعة للفاطميين في مصر ، أو لآل باديس الذين حكموا في افريقية (تونس) مستقلين عن نفوذ الفاطميين ، فاستولوا عليها جميعها بعد عدة معارك بقيادة ملكهم المسمى للعرب رجار «Roger» في سنة ١٠٩١/٤٨٤ ، لانشغال الفاطميين وآل باديس بمشاكلهم الداخلية . وقد كان استيلاء النورمان على جزيرتي صقلية ومالطة ، سببا في تحطيم سيطرة الأسطول الاسلامي في البحر الأبيض ، فكان أسطول صقلية يغير على مراكز المسلمين المرسله من مصر الى افريقية وأكثر من هذا ، هاجموا طرابلس

الغرب في سنة ١١٤٦/٥٤١ ، وكانت هي الأخرى قد استقلت عن نفوذ الفاطميين في مصر ، كما ستولوا على المهدية - ميناء هام - من آل باديس في سنة ١١٤٨/٥٤٣ . وقد تحالف مع النورمان على القضاء على نفوذ المسلمين في البحر الأبيض ، دويلات قوية بدأت تظهر في ايطاليا ، مستقلة عن نفوذ بيزنطة ، التي ضعفت بغزو النورمان ، مثل : بيزنة وجنوة والبندقية .

كذلك جاء الخطر من قبيل فرنجة الأندلس ، فنعرف أن المغاربة - وكانوا يعرفون بالبربر - خرجوا مع جيوش العرب لفتح هذه البلاد في عهد الخلافة الأموية ، وأنهم فتحوها كلها ما عدا المنطقة الصخرية النائية على الساحل الشمالي الغربي ، المعروفة باسم : جليقية ، فبقيت بيد فرنجة الأندلس . ولما انفصلت الأندلس في حكمها عن الدولة العباسية على يد سلالة أموية ، فرت اليها بعد القضاء على دولتهم في المشرق ، وكونت فيها اماره مستقلة ، ثم تحولت الى خلافة مزدهرة تنافس الخلافتين العباسية والفاطمية ، ولكن بضعف المسلمين في الأندلس ضعفت وانقسمت الى عدة دويلات يحكمها ملوك عرفوا بملوك الطوائف . وقد كان هذا سببا في شدة أذى فرنجة الأندلس ، بحيث بدأوا يسترجعون جزءا جزءا من الأراضي التي تحت سيطرة المسلمين ، وظهرت الحركة المعروفة في التاريخ بعصر الجهود المسيحية لاستعادة أملاكهم : «Reconquista» . فاستولوا بقيادة ملكهم ألفونسو السادس «Alfonso VI» ، الذي يسميه العرب الأذفونش على طليطلة «Toledo» في سنة ١٠٨٥/٤٧٨ ، وفي الوقت نفسه أنشأ ألفونسو هنريك «Alfonso Enrique» دولة البرتغال في الجزء الغربي من الأندلس ، التي حدها نهر تاجه (التاج) «Tago» . ولحسن الحظ حد من انتصار فرنجة الأندلس ، ظهور دولة غنية بالمغرب ، تكونت من قبائل بربرية أشهرها المتونة ، التي

كانت تسكن على حدود الصحراء في الجنوب ، وقامت تحت تحريض فقيه اسمه عبيد الله بن ياسين ، بنشر أحكام الشرع بين القبائل المجاورة ، وأنشأت لأتباعها ما عرف : « بالرباط » جمع « ربط » أو « رابطة » ، وهي أماكن للجهاد ، لذلك سميت الدولة التي أنشأها من البربر زعيم لمتونة المسمى أبو بكر بن عمر - وهو من أتباع ابن ياسين - بدولة المرابطين نسبة الى هذا الرباط ، أو بدولة الملتامين نسبة الى اللثام ، الذي كانوا يلبسونه في الصحراء ليقبهم من الحر والبرد كما يفعل العرب في الصحاري . وقد كان ظهورها في المغرب وقت ظهور الأتراك السلاجقة في المشرق حوالي سنة ٤٤٨/١٠٥٦ ، ثم لما امتدت رقعتها في المغرب الأقصى أنشأت لها في شمالها عاصمة عرفت بمراكش في حدود سنة ٤٧٠/١٠٧٧ ، كما أن رؤساءها منذ أبي بكر بن عمر كانوا على المذهب السني ، ويكتفى الواحد منهم بلقب أمير المسلمين ، ولم يلقبوا بلقب الخلافة : أمير المؤمنين . واجابة لطلب المسلمين بالأندلس ، عبرت جيوش المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين الممتوني ، الذي تولى رئاسة البربر بعد مقتل ابن ياسين في إحدى المعارك ، وموت ابن عمه أبي بكر بن عمر ، فقاموا بالجهاد وأوقفوا زحف النصارى فيها ، حيث هزمهم في موقعة الزلاقة المشهورة «Zallaca» ، قرب قرطبة سنة ٤٧٩/١٠٨٦ .

هذه الدولة البربرية الفتية ، التي انقذت الاسلام في الأندلس ما لبثت أن ضعفت بدورها ، مما هيا لفرنجة الأندلس أن يعاودوا التقدم . ولكن ظهر في المغرب من جديد دولة أخرى من قبائل بربرية تعرف بالمصامدة ، وتقيم في جبال درن (أطلس) المحيطة بمراكش ، جمعها حوله مصلح ديني أو آمر بالمعروف اسمه ابن تومرت وعرف بالمهدي ، كان يدعو للتوحيد ، وترك الفساد الذي وقعت فيه دولة المرابطين . فيقوم أحد أتباعه واسمه عبد المؤمن ،

بجمع شتات قبائل المصامدة سنة ٥٢١/١١١٨ ، وتكوين دولة قوية نسبت الى مبدأ التوحيد ، فعرفوا بالموحدين ، وكان الواحد منهم منذ عبد المؤمن يتسمى بأمر المؤمنين ، كأي خليفة . هذه الدولة البربرية كالسابقة قامت بالجهاد ، فسيطرت على معظم المغرب وطردت النورمان (الفرنج) من المهديّة سنة ٥٥٤/١١٥٩ ، بعد أن احتلوها اثنتي عشرة سنة ، وهاجمت فرنجة الأندلس عدة مرات ، وأوقفت تقدمهم . والخلاصة أن فرنجة الأندلس كان أمامهم من يشغلهم ، ويحد من خطرهم .

ولكن الخطر الداهم على المسلمين ، أتى على الخصوص من عناصر الفرنجة الساكنين فيما سماه المؤرخون العرب في العصور الوسطى بالأرض الكبيرة ، وهي تمتد من شمال الأندلس الى رومة شرقا . فهذه الأمم كانت في أصل نشأتها عبارة عن قبائل وثنية عديدة ، وصفت بأنها ذات ألسن كثيرة ، وتعيش عيشة القبائل الهمجية «Barbaros» ، وكانت تهاجم الامبراطورية الرومانية ، التي تحمل مشعل الحضارة وقتئذ . ولما انتشرت المسيحية ووصلت الى رومة ، كانت كنيستها سبابة الى كسبهم الى المسيحية ، فكان تحولهم اليها سببا في تقويتها ، بحيث استطاعت هذه الكنيسة أن تقف ندا للكرسى البطريركي في القسطنطينية ، واختصت من دون الكنائس الأخرى بلقب : « البابا » ، بعد أن كان هذا اللقب للكرسى الاسكندرية ، وانفصلت عن كرسى القسطنطينية في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، ولا سيما أن اعتقاد رؤسائها يخالف اعتقاد بيزنطة . وحينما ضعفت بيزنطة كانت البابوية في رومة تسيطر بسلطانها الروحية المطلقة على جميع أمم فرنجة أوروبا . بحيث أن من خالف البابا ، كان يعتبر خاطئا عاصيا ، يستحق النفي والطرود والقتل ، ويحرم من حقوق المسيحي وأكله وشربه ، والزواج من النصرانيات ، فكان سلطان البابا قويا لا يمكن لأحد

مخالفته . ومن ناحية أخرى كان تحول هذه الأمم الى المسيحية ، مساعدا على ظهور ممالك قوية في أوروبا ، صارت منافسة خطيرة لدولة الروم في ميدان الزعامة على المسيحيين .

ومع أن أغلب هذه الأمم من الفرنجة لم يكن الاسلام قد عادها ، فيما عدا فرنسا ، التي أغار عليها المسلمون وهاجموا أراضيها وسواحلها ، في عهد الأمويين والعباسيين ، وهي البلاد التي جاورت بلادهم في الأندلس ، وعرفت لهم باسم أفرانسة أو أفرنجة العظمى ، لأنها كانت على الخصوص موطن أهم الفرنجة أو الفرنج ، الا أنه حينما دعيت أوروبا الى حرب المسلمين ، أصبحت أممها جميعا من أشد أعداء الاسلام ، واتسع نطاق الصراع ، واتخذ شكل حرب عالمية .

ويبدو أن السبب الرئيسى في عداة أوروبا للمسلمين ، هو الحج المسيحي الى الأماكن المتصلة بذكرىات المسيحية في مدينة القدس أو بيت المقدس بفلسطين ، أو ما عرف قديما بـإيلياء ، أو بأورشليم ، وهي جميعا أسماء تعنى القداسة أو الطهارة أو بيت الله . ويدعونا هذا الى أن نتكلم عن الحج المسيحي بالتفصيل : فليس لدينا ما يدل على وجود عقائد مسيحية قديمة للحج ، أو أنه فرض ديني كما هو عند المسلمين . ولكن يظهر أنه بدأت تظهر له عقائد بقيام الدولة البيزنطية ، التي ورثت الرومان في الشرق ، وأخذت بدين المسيح ، ودانت بتعظيمه . فيروى المؤرخون - ومنهم العرب - أن هيلانة «Helena» أم قسطنطين «Constantinus» ، أول امبراطور لهذه الدولة المسيحية ، ارتحلت الى القدس في طلب الخشبة التي صلب عليها المسيح ، فأخبرها القساوسة بأنه رمى بخشبته على الأرض وألقى عليها القمامات والقاذورات ، فاستخرجت الخشبة وبنت مكانها كنيسة ، عرفت باسم كنيسة القيامة كأنها

على قبره ، أو كنيسة القيامة لوجود هذه القمامة ، ثم بنى البيزنطيون في بيت لحم المجاور للقدس كنيسة على المكان الذي ولد فيه المسيح ، فكان النصارى من جميع البقاع يذهبون الى القدس لزيارة هذه الأماكن المقدسة . وقد أوقفت غزوات الفرس للشرق هذه الزيارات ، وبخاصة في ٦١٤ م ، ولكن حين استرجع هرقل (Heraclius) - امبراطور بيزنطة - هذه الأراضي في ٦٢٢ م ، عاد النصارى للحج زرافات الى فلسطين . ولما جاء المسلمون كفاتحين لفلسطين ، نجد أن بطريرك بيت المقدس اليوناني ، واسمه صفرنيوس «Sophronius» ، يصمم على تسليم بيت المقدس للخليفة عمر بن الخطاب نفسه ، على أن يمنح النصارى الأمان لدينهم ولكنائسهم ، فقبل الخليفة وقدم الى فلسطين في سنة ١٧ / ٦٣٨ ، وهو راكب بعيرا أحمر ، وخلفه جفنة مملوءة بالتمر وقربة ماء ، ودخل القدس التي سلمها اليه البطريرك ، ومنح أهلها النصارى الأمان على دمائهم وأموالهم وكنائسهم ، وقد صالحهم وحدهم دون اليهود ، وامتنع من أن يصل في كنيسة القيامة ، حتى لا يحولها المسلمون الى مصلى . وقد كان تسامح خلفاء المسلمين سببا في استمرار الحج المسيحي ، وأثبت المسلمون أنهم غير متعصبين ، بحيث أن مؤرخي أوروبا وحدهم أوردوا أن الخليفة العباسي هرون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ / ٧٨٦ - ٨٠٩) ، جعل لامبراطور الفرنجة في أوروبا شرفا لاشراف المعنوى على بيت المقدس ، وأرسل له جملة هدايا منها مفاتيح كنيسة القيامة . ولما أسس الفاطميون خلافتهم في مصر ، واستولوا على الشام من العباسيين ، نجد أن الخليفة العزيز الفاطمي (٣٦٠ - ٣٨٦ / ٩٧٠ - ٩٩٦) ، يصاهر بطريرك بيت المقدس ، وهو لم يكن متسامحا فقط مع النصارى ، بل ومع اليهود . حقا ان الخليفة الفاطمي الذي أتى بعد العزيز ، وهو الحاكم (٣٨٦ - ٤١١ / ٩٩٦ - ١٠٢٠) ، أظهر تعصبا : فمنع

النصارى فى بيت المقدس من الاحتفال بأعيادهم ، وهدم كنيسة القيامة المقدسة وغيرها من الأماكن الدينية ، بما فيها أديرة للنساء ، وفرض عليهم وعلى اليهود لبس علامات مميزة « الغيار » لظهار عزة الاسلام ، بلبس ثياب سوداء أو تعليق الصليب وإبرازه ، مما أدى بنصارى بيت المقدس من غير العرب الى الهجرة الى بلاد الروم . وتوقف الزيارات . وقد أثار هذا التصرف غضب النصارى عموما ، الا أن الخليفة الحاكم عاد الى حسن معاملة النصارى ، وأمر بإعادة بناء الكنائس ، ومن بينها كنيسة القيامة المقدسة . ولما هاجم السلاجقة أملاك الفاطميين فى الشام ، ساءت أحوال نصارى بيت المقدس ، وتوقفت الزيارات اليه ، لأنهم حينما عملوا على فتحه من يد الفاطميين ، هاجمه القائد التركى المسمى ألتسز أو الأقسيس ، من قبل تنش أخو السلطان ملكشاه فى سنة ٤٦٣/١٠٧٠ و ٤٦٩/١٠٧٦ ، ونهبه وقتل كثيرا من أهله ، فغضب تنش عليه وقتله . وولى غيره واسمه سبكان أو سقمان . ثم ان الفاطميين عادوا بعسكر من مصر ، لاسترداد بيت المقدس من السلاجقة بقيادة وزيرهم الأفضل فى سنة ٤٨٩/١٠٩٦ ، بمعاونة أهله ، وأنابو فيه رجلا عرف بافتخار اللولة ومعه حامية مصرية ، بقيت فيه الى وقت مجيء الفرنجة فى الشرق .

مهما يكن فان الفرنجة أوربا اتخذت شكوى الحجاج الى بيت المقدس ذريعة لحرب المسلمين ، فنجده البابا اربانوس الثانى (اربان) « Urbanus II » (١٠٨٨ - ١٠٩٩ م) - وهو أول بابا التجأ من ايطاليا الى لويس السادس « Louis VI » ملك فرنسا - يكلف رجل الدين الفرنسى بطرس الراهب « Pierre l'Ermite » ، بالدعوة الى الحرب المقدسة ضد المسلمين ، لتخليص الأماكن المقدسة . وهكذا كانت فرنسا أول داعية لحرب المسلمين ، اذ أنها لم تكن قد خسيت غارات المسلمين فى أراضيها ، وأنها هى التى دافعت عن

المسيحية فى الواقعة المعروفة عند العرب باسم بلاط الشهداء ، لكثرة ما سقط من قتلى المسلمين ، بما فيهم قائدهم عبد الرحمن فى سنة ٧٣٢/١١٤ . فعقد فى كليرمون فران « Clermont-Ferrand » - أكلرمنت - بجنوب فرنسا ، مؤتمر اجتمع فيه الفرنجة من جميع أركان أوربا ، خطب فيه كل من البابا وبطرس ، حاضرين على حرب المسلمين ، فقال البابا فى خطابه : « انه من الواجب على النصارى أن يحموا أرواحهم بالذهاب فى طريق المسيح . واذا لم يستطيعوا فليقدموا أموالهم ، وقال بطرس الراهب : « انى نظرت قبر المسيح محتقرا مهانا وزواره مضطهدون » . فصرخ الحاضرون بالحرب ، وهم يرددون : « الله يريد ذلك » ، « Dieu le veut » (Dieu le volt) ، وهى العبارة التى أصبحت صرخة المسيحية فى حرب المسلمين . فأخذ الفرنجة يتجمعون من كل مكان لقتال المسلمين ، وهم يعلقون على الكتف الأيمن أو على الكتفين صليبا من قماش أحمر « Crux » ، لذلك عرفت الحروب التى قاموا بها ضد المسلمين بالحروب الصليبية « Cruzada » ، أو ما يسميه الأوروبيون فى لغتهم الفرنسية : « Croisades » والانجليزية « Crusades » ، أما المؤرخون العرب مثل ابن تغرى بردى فسموها بحركة الفرنج .

وقد اشترك فى أول موجة صليبية رجال ونساء وأطفال جاءوا من كل مكان من أوربا ، يقودهم بطرس الراهب الى بيت المقدس . حيث تحركوا بزحفهم الحاشدة عبر وسط أوربا ، فى نفس الطريق الذى سار فيه الأمباطور قسطنطين الى القسطنطينية . فقتلوا اليهود فى طريقهم ، كما أنهم لكى يحصلوا على ما يمسك رفقهم كانوا يسلبون وينهبون . ويصف لنا المؤرخون اليونان وغيرهم هذه الموجة الصليبية المتعصبة بأنها كانت تتكون من جماعات من الأتاقين ، لا يستحقون مشاهدة قبر المسيح . فلما وصلوا الى أسوار

القسطنطينية في ١٠٩٦/٤٨٩ ، نصحبهم الكسيوس كومنينوس «Alexius Comnenus» (١٠٨١ - ١١١٨ م) ، بالألا يتسرعوا في العبور الى آسيا الصغرى . ولكنهم أساءوا التصرف ، فأحرقوا القصور ونهبوا الكنائس ، فأمرهم بالرحيل . ولا سيما أنه خاف من أن تسيط عليه أوربا من منعهم ، وكان يسره بطبيعة الحال أن يحاربوا الأتراك السلاجقة ، الذين احتلوا أجزاء من بلاده في آسيا الصغرى . وتروى المراجع الصليبية أن السلاجقة قاتلوهم بقيادة شخص اسمه سليمان «Solimanus» ، الذي لا يمكن أن يكون سليمان بن قتلмыш مؤسس إمارتهم ، لأنه كان قد قتل قبل ذلك في سنة ١٠٨٦/٤٧٩ ، وخلفه ابنه المسمى قلعج أرسلان ، أي سيف الأسد . وقد انتصر الترك السلاجقة عليهم ، وأحرقوا من هرب منهم في الغابات ، أو القوا بهم في البحر ، واضطر بطرس الراهب قائدهم الى النجاة بنفسه .

وفي الوقت ذاته قامت تجمعات أخرى كبيرة ، معظمها من فرسان الفرنجة أكثر تنظيما من السابقة ، ولذا كان خطرها شديدا على المسلمين . وقد ظهر بين أفرادها قواد مشهورون ارتبط اسمهم بهذه الحملة ، مثل : الأخوين الفرنسيين جودفروا الملقب دي بويون «Godefroi de Bouillon» - ويسميه العرب في كتبهم كندفري أو كندهري - وبودوان «Baudouin» - ويسمونه بغدوين أو بردويل - والنورمانى بوهمند «Bohemond» - ويسمونه بيمند أو بيمند . وقد أقبل الجزء الأكبر من هذه الحملة نحو الشرق من طرق متعددة ، بعضها عن طريق وسط أوربا ، والبعض عن طريق سهول إيطاليا الشمالية . فلما وصلوا الى القسطنطينية سنة ١٠٩٧/٤٩٠ ، لعبروا بحر مرمرة - أو ما سماه العرب « بالخليج » أو « المجاز » - الى بلاد الترك السلاجقة ، لم يمكنهم الكسيوس من العبور ، وطلب منهم البقاء في ضواحي القسطنطينية ، حتى يتعهدوا

له بإعادة أنطاكية ، اذا ما استولوا عليها من أيدي السلاجقة ، اذ هي المدينة الهامة الواقعة في وادي الأردن الأدنى على حدود الشام . التي كان البيزنطيون قد استولوا عليها وقت ضعف الخلافة العباسية في سنة ٩٦٤/٣٥٣ ، وبقيت في أيديهم حوالي قرن من الزمان الى أن استعادها سليمان بن قتلмыш ، جد ملوك آل سلجوق في آسيا الصغرى سنة ١٠٨٤/٤٧٧ . وعلى الرغم من أن الفرنجة لم تعجبهم هذه المساومة من قبل ملك بيزنطة ، فانهم قبلوا التعهد له بإعادتها ، اذ كان هدفهم الأول قتال المسلمين .

فلما جاء هذا الزحف الصليبي الى آسيا الصغرى ، حاربوا الترك السلاجقة ، فأول ما هاجموا فيها نيقية أو أنيقية «Iconium» ، بلدة من أعمال اصطنبول كانت لقلجج أرسلان . وقد كان حصارها أشبه بحصار الطرواديين ، بحيث أن الصليبيين جاءوا بسفن من القسطنطينية بالثيران . وقد حاول الترك استنقاذها على غير جدوى ، اذ لم ينقطع وصول الامدادات الصليبية برا وبحرا ، وكانت كثيرة . وبعد أكثر من سبعة أسابيع ، قرر الترك تسليمها الى ملك بيزنطة ، دون الفرنجة ، فقبل منهم ذلك في رجب من سنة ٤٩٠ / يونية ١٠٩٧ ، وحمل الأسرى منهم الى القسطنطينية ، وقد بقيت نيقية في أيدي البيزنطيين الى وقت مجيء الأتراك العثمانيين .

بعد ذلك سهل زحف الصليبيين الى الجنوب ، بسبب وصولهم الى بلاد الأرمن المسيحية . ولكنهم توقفوا أمام أنطاكية لحصانتها ، اذ كانت محصنة طبيعيا بالجبال ، وبأسوار وبروج وحصون متقدمة ، ولأن جماعات مسلمة من مدن عديدة خرجت لنصرتها ، مثل حلب ودمشق والقُدس . وبعد أن حاصرها الصليبيون مدة تسعة أشهر ، وبنوا أمامها قلعة جمعوا حجارتها من قبور الموتى ، استولوا عليها من صاحبها التركي ياغيسيان - يسميه الأوربيون Cassian - في

جمادى الأول من سنة ٤٩١ / مارس ١٠٩٨ . فلما دخلوها ذبحوا معظم أهلها المسلمين ، بحيث لم تعد ترى الأرض من كثرة الجثث . ومع أن سلاجقة الشام والجزيرة ومعهم العرب ساروا لاستعادتها بقيادة كربوقا التركي أمير الموصل ، وكادوا يستولون عليها ، وأصبح الفرنجة فيها محاصرين ليس لهم ما يأكلونه ، إلا أن تكبير كربوقا وإتقسام القواد أضاع هذه الفرصة ، وأدى إلى انهزام المسلمين هزيمة منكرة . وكان الصليبيون قد اتفقوا مع ألكسيوس على أن تسلم إليه أنطاكية ، إلا أنهم سلموها لبوهمند - ييمنت أو ييمند - الذى تركها بعد ذلك لابن أخيه تنكرد «Tangri» - طنكرى - بحيث أن ألكسيوس استعد لمحاربة هذه الأمانة الصليبية الجديدة .

بعد هذا الانتصار فى أنطاكية ، سار قسم من الصليبيين نحو بلاد الجزيرة ، واستولوا على مدن عديدة منها الرها المسماة أيضا أرفة ولليونان «Edessa» ، وهى المدينة المسيحية الهامة الذائعة الصيت ، الواقعة بين الموصل والشام ، وكان أغلب سكانها من الأرمن ، وليس بها من المسلمين إلا القليل ، وإن تمكن أتابكة السلاجقة فى الجزيرة من وقف تقدمهم إلى بغداد . كذلك ذهب قسم آخر من الصليبيين إلى الجنوب ، وكانوا يمشون على شط البحر ، وتأتيهم المراكب الإيطالية بالذخائر والرجال . فكانت مدن الشام العليا وموانئها تسلم إليهم بدون مقاومة . وقد استعمل الصليبيون منتهى القسوة مع أهل المدن المستسلمة ، فحينما دخلوا معرة النعمان مثلا ، قتلوا من الرجال والنساء أكثر من مائة ألف ، وأخذوا من كان حيا لبيعه .

ويظهر أن الفاطميين فى مصر أرادوا أن يوقفوا زحف الصليبيين نحو أملاكهم فى الشام ، بعد أن عجز السلاجقة عن صددهم . بالدخول معهم فى مفاوضات . ولا نصدق ما قيل من أنهم هم الذين

استدعواهم إلى الشام ليستعينوا بهم ضد السلاجقة ، فالفاطيون كانوا دائما حماة الاسلام ، وابن الأثير المؤرخ صاحب هذه الرواية يتشكك فيها ، ويقول : « والله أعلم » . ولدينا سجلات عديدة بتقليد وتولية أمراء مصر الجهاد ضد الصليبيين ، كما أنهم جعلوا طائفة من الجند تعرف بصبيان الحجر من أولاد الناس ليتعلموا الفنون الحربية ، ويكونوا مستعدين للمقاتلة عند أول إشارة .

ولكن الحجاج النصارى كان هدفهم بيت المقدس ، الذى كان بأيدي الفاطميين منذ أن استعادوه من السلاجقة بعسكر من مصر بقيادة وزيرهم الأفضل فى سنة ٤٨٩ / ١٠٩٦ ، وأصابوا فيه قائدا اسمه افتخار الدولة . فحاصروه بعدد كبير ، وضربوه بالنار والحجر من المنجنيقات ، ودافع عنه عسكر مصر بشجاعة نادرة مدة أربعين يوما ؛ فكانوا يفضلون الانتحار بالقاء أنفسهم من بروج الحواط عن تسليم أنفسهم . ولما تمكن الصليبيون من دخول المدينة فى شعبان سنة ٤٩٢ / يونية ١٠٩٩ ، ذبحوا كل من وجدوه فيها من المسلمين من شيوخ ونساء وأطفال ، وأحرقوا منهم من هرب إلى مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، حتى أن المراجع النصرانية نفسها تقول : « لم نر مثل هذا الذبح من قبل فى المسلمين » . وكان الوزير الأفضل ، لما بلغه وصول الفرنجة إلى القدس ، قد حشد العساكر المصرية وسار بهم . فلما قرب من القدس كان الفرنجة قد فتحوه ، وهجموا عليه وهزموه ، وأحرقوا من التجار من عساكره إلى الغابات . وقد فرحوا بهذا الانتصار والوصول إلى مقبرة المسيح (ربهم) ، بحيث أنهم كانوا يكونون من شدة الفرح . وهكذا سقط بيت المقدس فى أيدي الفرنجة ، بعد أن ظل فى أيدي المسلمين منذ فتحه فى وقت عمر بن الخطاب سنة ٦٣٨ / ١٧ .

وترث الصليبيون لتنظيم الدولة التى أقاموها فى بيت المقدس . وقد حدث نزاع على من يتولى السلطة العليا فيها : فقد

تنازعتها البابوية ، التي كانت تأمل فى السيطرة على الكنيسة الشرقية بالإضافة الى سيطرتها على الكنيسة الغربية ، والمدن الإيطالية التى قامت بنقل الجنود والامدادات على سفنها ، وبيزنطة التى كانت تريد استعادة مستعمراتها فى الشرق ، ولكنهم اتفقوا أخيرا على أن يكون جودفروا - كندفرى أو كندهرى - حاميا لها ، وان رفض أن يتخذ لقب الملك . وينسب الى جودفروا هذا أنه وضع أساس دستور هذه الدولة ، وهى ما عرفت باسم أسيس «Assises» ، حيث أضاف اليه ملوكها من بعده قوانين أخرى خاصة بالدولة وبنظام الاقطاع ، وان كانت هذه القوانين لم تجمع نصوصها الا فى القرن الرابع عشر ، لأن أصولها قد ضاعت وقت استرداد صلاح الدين لبيت المقدس . ولما قتل جودفروا من سهم أصابه أمام مدينة عكة فى سنة ١١٠١/٤٩٤ ، اختار كبار الفرسان ورجال الدين آحاه بودوان ، وهو الذى اتخذ لقب الملك ، ومنذ ذلك الحين صار حكام بيت المقدس يتلقبون به . فكان بودوان يفعل مثل داود الشرق ، يلبس الثياب الشرقية ، ويرسل لحيته ، ويتناول طعامه على الأرض . وأصبحت دولة بيت المقدس نظرا لأن حاكمها ملك تعرف بمملكة بيت المقدس ، أو بالمملكة اللاتينية ، ربما بسبب جنسية ملوكها ، أو لأنها أنشئت فيها لأول مرة فى الشرق كنيسة لاتينية .

وقد عهدوا فى الدفاع عن هذه المملكة لطوائف من فرسانهم ، وبخاصة ما عرف للعرب باسم الاسبتارية — Hospitaliers — وان عرفوا فيما بعد بفرسان القديس يوحنا . وقد سمو بالاسبتارية ، لأنهم فى أصل نشأتهم كانوا يقومون باستقبال الحجاج وايوائهم فى نزل Hospes ، أنشأوها لأول مرة بجوار كنيسة القيامة . وطائفة أخرى عرفت للعرب باسم الداوية أو الديوية ، أو ما عرف للفرنسيين باسم فرسان المعبد «Templiers» ، نسبة

الى أنهم سموا مكان الصخرة بالمعبد «Templum» ، لأن تاريخها كان غامضا لهم . وكانت الطائفتان تملكان الحصون والأساطيل ، ولهما حق عقد المعاهدات ، وجباية الضرائب ، بحيث كانوا دولة داخل الدولة .

وقد تبع فتح بيت المقدس ، أن حولت جميع مساجده الى كنائس ، وبخاصة مسجد قبة الصخرة ، الذى كان عبد الملك بن مروان قد بناه على أساس المسجد الذى بناه عمر بن الخطاب عليها ، والمسجد الأقصى الذى بناه الخليفة الوليد فى ساحة مسجد قبة الصخرة ، وعرف لفخامته أيضا ببلاط الوليد . فبنوا على الصخرة المقدسة فى المسجد كنيسة كانوا يعظمونها ويفتخرون بها ، وأقاموا على قبعتها صليبا من ذهب ، أما المسجد الأقصى ، فإنه أقيمت فيه كنيسة ونزل لفرسان الداوية ، وأصبح يعرف لهم باسم معبد أو قصر سليمان «Templum (palatium) Salomonis» ، لأنه قيل ان سليمان بنى فى مكانه معبدا . وقد كان التعصب الصليبي نحو مساجد المسلمين ، يناقض ما جبل عليه المسلمون من تسامح نحو كنائس النصارى ، بحيث تركوها لهم بما فيها من ذخائر وتحف ، وحتى بعد أن استرد صلاح الدين بيت المقدس ، ترك لهم كنوز الكنائس ، ليأخذوها معهم ، وأبقى على كنيسة القيامة لا يدخلها المسلمون .

وعلى الرغم من أن الفاطميين فى مصر حشدوا عساكرهم وعادوا الى مهاجمة الصليبيين عدة مرات ، فان الملك بودوان - بغدوين أو بردويل - تمكن من احراز انتصارات متتالية ، بحيث أنه لم تنته سنة ١١٠٣/٤٩٦ ، حتى كان قد ملك كل فلسطين ما عدا عسقلان ، التى بقيت تجاهد الفرنج حتى وقت سقوطها فى سنة ١١٥٣/٥٤٨ . وكذلك استولوا على طرابلس فى ١١٠٨/٥٠٢ ، وبيروت

في ١١٠٩/٥٠٣ ، وصيدا في ١١١٠/٥٠٤ ، وصور في ٥٢٨/١١٣٤ . ويقول ابن تغري بردى المؤرخ : انه كان من الممكن انقاذ كل هذه المدن ، لولا سوء الحالة في بلاد المصريين .

ولم يقتصر طمع الصليبيين أو الحجاج المسلمين عند حد ، بل انهم طمعوا أيضا في مصر لضعفها ، وهي التي كانت تزهو أمام أعينهم بغناها . فقد كان هم بودوان غزوها ، فذهب يستكشف طريق الزحف ، وتوغل في شبه جزيرة سيناء ، ودخل الفرما على الساحل (شرق بورسعيد) بين العريش والفسطاط ، وفتحها في سنة ١١١٥/٥٠٩ ، ولكن الجند الدائمين الموجودين في الشرقية ، يتقدمهم العربان حاربوه ، كما أسرع الوزير الأفضل في ارسال العساكر الرئيسية من القاهرة فرحل ، ومات في طريق عودته قبل أن يصل الى العريش . فأخذت جثته لتدفن بكنيسة القيامة ، بعد أن ألقى بأمعائه في مكان لا يزال الى اليوم يعرف بسبخة بردويل أو بالسبخة .

ومعنى هذا أن النصرانية قد عادت منتصرة الى الشام والجزيرة ، وأنه أصبحت لها مملكة وامارات في هذه البلاد بين امارات السلاجقة وأتابكياتهم وعلى حدود مصر ، نميز منها : امارة الرها على الفرات التي كان يتبعها عدة بلاد ، وامارة أنطاكية في الشمال التي امتدت الى جبال طوروس وشمال الشام . ومملكة القدس التي امتدت من لبنان حتى صحراء النقب والبحر الأحمر ، وامارة طرابلس التي نشأت تابعة لمملكة بيت المقدس ، واعتبرت منفذا لها على الساحل ، وامتدت من حمص الى شمال لبنان دون أن تدخل فيها امارة دمشق السلجوقية . ومع ذلك ، فإن مملكة بيت المقدس كانت أهم بلاد الفرنجة ، اذ كان يخضع لها أشرفهم في الشام والجزيرة ، وموقفهم

منها قد يكون موقف الامارات السلجوقية وأتابكياتها من السلطان السلجوقي بالعراق .

★ ★ ★

بعد ذلك نتبع باسهاب العنصر الثالث : وهم الفاطميون ، الذين كانوا في أشد حالات الضعف . فهذه الأسرة من الخلفاء ، التي حكمت مصر منذ سنة ٩٦٩/٣٥٨ ، غلبت عليها التسميات الآتية : الفاطميون نسبة الى فاطمة ابنة النبي وزوجة علي ، التي تنسب اليها هذه الأسرة ، والعلويون نسبة الى علي بن أبي طالب مؤسس أسرهم ، وزوج فاطمة ، والاسماعيليون نسبة الى أحد أئمتهم المشهورين وهو اسماعيل بن جعفر الصادق من نسل علي ، والشيعة أو شيعة علي ، لأنهم من نسله وأنصار حقه ، وبمعنى آخر كانت هذه الخلافة تركز في سلطتها على صلة القرابة ببيت النبي من نسل علي وفاطمة بالذات .

وقد كان أول ظهورها بالمغرب على يد عبيد الله من سلالة علي وفاطمة ، الذي أعلن الخلافة ، وتلقب بالمهدي ، وتسمى بأمير المؤمنين في سنة ٩٠٩/٢٩٧ ، حتى أن خلفاء الفاطميين من بعده ، كانوا يعرفون أيضا باسمه : العبيديين . وقبل ذلك كان فقهاء المسلمين لا يعترفون الا بخلافة واحدة هي الخلافة العباسية ، فاذا استقل أحد الأمراء بأحدى البلاد بقي يدين بالولاء لها ولو اسما ، فالأمويون الذين التجأوا الى الأندلس ، وكونوا فيها امارات مستقلة يعد سقوط دولتهم في دمشق على يد العباسيين ، فانهم مع عدائهم الشديد لهم ، كانوا يتسمون بالأمراء أو أبناء الخلافة دون أن يتخذوا لقب الخلفاء . ولكن اعلان عبيد الله المهدي الخلافة ، كان سببا في جعل الفقهاء من السنة يغيرون من رأيهم ، بحيث قدروا امكان عقد بيعة لاكثر من خليفة ، كما أنه كان فاتحة لتعدد الخلافات ،

قتل عبد الرحمن من أمراء الأمويين بالأندلس بقلب الخليفة الناصر ،
وتسمى أيضا بأمير المؤمنين .

ومع ذلك ، فإن خلافة الفاطميين ، لم تكن تؤمن برأى فقهاء
السنة في إمكان تعدد الخلفاء ، أو أن طاعة المسلمين لهم جزئية .
وهو ما عبروا عنه بالولاية : ففي اعتقادهم أن خلافتهم وحدها هي
التي يجب أن تطاع في دار الاسلام ، وأن كل خلافة أخرى غيرها
تعتبر باطلة ، إذ أن طاعتهم من إرادة الله ، بسبب أن النبي أوصى
لعلي - جدهم - في مكان بين مكة والمدينة اسمه غدير خم ، لتكون
الخلافة وراثية في بيته إلى يوم القيامة ، إلا أن الخلفاء الراشدين
والأمويين والعباسيين اغتصبوا هذا الحق منهم ، وقد اعتبرت هذه
الوصاية عندهم بمثابة القرآن ، لأن الوحي هو الذي جاء بها للنبي
في رأيهم ، وأصبحت جزءا من عقيدتهم الإسلامية ، وهي : « لا إله
إلا الله ، محمد رسول الله ، وعلى ولي الله » .

وفعلا نجد أن الخلافة الفاطمية بعد ظهورها في المغرب ،
تستولي على مصر والشام ، ومعظم بلاد جزيرة العرب ، كما أنها
كانت راغبة في محق سلطان العباسيين بالشرق ، إلا أنهم لم
يقوموا بذلك بسبب أن خلفاء العباسيين كان يحكمهم البويهيون
وهم شيعة مثلهم ، وكان هؤلاء يعترفون بحق امامتهم ، لذلك ظهرت
عداوتهم للعباسيين في شكل صراع سياسي . ويقول الفقيه الشيعي
ناصر خسرو في صدد ذلك : ان الخليفة الفاطمي عليه أن يقاتل
الكفرة بحد السيف ، وأن يقاتل المنشقين من المسلمين بنشر الدعوة
بينهم . لذلك قسم الفاطميون دار الاسلام إلى أقاليم ، أو ما يسمونه
جزائر جمع جزيرة ، حتى لا يخلو أي جزء منها من الدعوة إلى
امامتهم . وقد تمكنوا بفضل الدعوة لهم في العراق ، من إثارة
الدسائس ضد الخلافة العباسية ، بحيث طرد الخليفة العباسي القائم

من بغداد كما ذكرنا ، وخطب للخليفة المستنصر الفاطمي فيها سنة
١٠٥٤/٤٤٦ ، وكان هذا أقصى ما وصلت إليه الخلافة الفاطمية من
سيطرة في بلاد المسلمين .

ولكن الخلافة الفاطمية ما لبثت أن ضعفت ، كما حدث للخلافة
العباسية من قبل ، وكان السبب الرئيسي في ذلك هو استبداد
الوزراء ، وهو نفس السبب الذي تسبب في ضعف الخلافة العباسية ،
حينما استبد بها أمراء الأمراء ، ومن بعدهم ملوك بني بويه ، ثم
سلطين السلاجقة . فقد كان الخلفاء الفاطميون في المغرب ، وفي
أوائل حكمهم في مصر ، يعتمدون على أنفسهم في تصريف الأمور ،
وإن استخدموا في مصر الكاتب أو المدبر أو الوسيط أو السفير ،
وهي تسميات تدل على الذي يتصرف بحسب رأى الخليفة دون أن
يبلغ مرتبة الوزير . ولما اتخذوا الوزراء منذ عهد الخليفة العزيز
بالله ، اتخذوهم في أول الأمر ممن عرفوا بوزراء القلم أو وزراء
التنفيذ ، أي أنهم وزراء مدنيون ينفنون إرادتهم . ولكن ظروف
الخلافة الفاطمية في النصف الثاني من عهد الخليفة المستنصر بالله
وما حدث فيها من مجاعات شديدة وفتن الجند ، أفقدت الخليفة
ووزراءه المدنيين كل سلطة في البلاد ، بحيث كان وزراؤه يسقطون
بسرعة ، وعين في أربع سنوات عشرين وزيرا منهم .

ولما كان الخليفة الفاطمي عاجزا عن قمع الفتن وتصريف أمور
الدولة بنفسه ، فانه التجأ إلى واليه على عكة في الشام ، بدر الجمالي
من رجال الحرب أو السيف في سنة ١٠٧٤/٤٦٧ ، لينقذ سرير
ملكه المهدد . فأجاب بدر دعوته ، وجاء في البحر الهائج في فصل
الشتاء ، وانقذ الخلافة من الثورات ، وصرف أمور الدولة . ففوض
إليه المستنصر جميع أمور الملك لقاء ذلك ، فأصبح رئيس الدولة
الفعلي ، أو ما عرف بوزير التفويض ، فقد ورد في سجل تولية

بدر : « وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره ، وناط بك النظر في كل ما وراء سريره » . فكانت سلطة بدر تمتد الى كل شيء ، فهو أمير الجيوش ، المسيطر على الجيش ، وكافل قضايا المسلمين ، المسيطر على السلطة القضائية ، وهادئ دعاة المؤمنين ، أى المشرف على الدعوة الفاطمية . وقد حكم بدر للمستنصر حكما مطلقا الى وقت وفاته سنة ١٠٩٤/٤٨٧ ، فكان المستنصر معه كالمجور عليه .

وبعد بدر وجدت سلسلة من وزراء التفويض ، الذين تدخلوا في تعيين الخلفاء الفاطميين : فقد وجدوا في كيفية تعيينهم ما سهل لهم الاستبداد ، ذلك لأن تعيين الخليفة الفاطمي ، ليس كتعيين الخليفة العباسي ، يتم باجماع الأمة الاسلامية - كما هو مفروض عندهم - ولكن يتم بما عرف بالتنصيب أو بالنص ، لأن الامام ينص على من يخلفه . وفوق ذلك لم يكن للنص نظام معين ، فهو قد يكون تحريريا بوصية ، أو شفويا وهو الغالب ، أو حتى بالتلميح بالعطف ، كما أنه لم تكن هناك شروط خاصة بعمر الامام أو حالته الجسمية والنفسية مثلما هو عند السنة ، غير ارادة الامام ، التي اعتبرت من ارادة الله بسبب وصاية النبي لعل عن طريق الوحي ، ولأن هذه التولية كان يصحبها وراثه العلم الالهى أو اللدنى ، الذى ورثه على ومن بعده الائمة عن النبي ، فكل امام كان يلحقه خلفه .

وقد بدأ استبداد وزراء التفويض بالنص منذ الخليفة المستنصر ، الذى كفل وزارة التفويض لأبى القاسم شاهنشاه بن بدر ، الملقب بالأفضل ، بعد موت أبيه بدر : وكان الأفضل من قبل ينوب عن أبيه فى الاستيلاء على أمور المملكة ، ويخطب له على المنابر بعد الخليفة وأبيه . فقد وقع اختيار الأفضل بعد موت المستنصر فى سنة ١٠٩٤/٤٨٧ ، على أبى القاسم أحمد الملقب

بالمستعلى الابن الأصغر ، وادعى الأفضل أن المستنصر نص عليه بالتلميح ، وبذلك تمكن من السيطرة على الدولة فى عهد المستعلى أيضا . وحتى بعد موت المستعلى فى سنة ١١٠١/٤٩٥ ، لم يضعف نفوذ الأفضل اطلاقا ، فأجلس للخلافة المنصور بن المستعلى ، وكان لا يزال طفلا له من العمر خمس سنين وأشهر ، ولقبه بالأمر بأحكام الله - سخرية - وخرج له سجل طويل ، يبين أن الأمر يتمسك بوزارته كما فعل جده وأبوه من قبل ، فاستمر الأفضل قرابة عشرين عاما أخرى يحكم وحده فى مصر .

ولكن الأمر بعد أن بلغ رشده ، حاول أن يسترجع نفوذه من هذا الوزير المستبد ، فدس له السم وقتله فى سنة ٥١٥/١١٢١ ، وصادر املاكه وأمواله الكثيرة ، التى كانت تشمل مراكب وبغلا وخيلا ورقيقا وحليا وجواهر ، وسجن ابنه أبى على أحمد فلما وزر له بعده المأمون البطائحي ، وأراد الاستبداد بدوره ، قتله وقتل خمسة من اخوته ، فى سنة ٥١٩/١١٢٥ ، وبقي بغير وزير . ولكن هذا التمتع بسلطته لم يطل ، اذ كان عليه أن يقاتل أعداءه من الشيعة ، الذين قالوا ان النص لم يكن لأبيه المستعلى ، ولكن لعمه نزار وعقبه ، وهى الجماعة التى أضطهدت على يد الأفضل . بحيث هاجر زعمائها الى اقاصى فارس ، وأسست الفرقة المعروفة بالنزارية نسبة الى نزار ، وان عرفت أيضا بأسماء أخرى منها الحشيشة أو ما عرف للأوروبيين باسم Assassins ، لأن مؤسسها حسن بن الصباح (ت ٥١٧/١١٢٤) ، الذى زار مصر فى سنة ٤٧١/١٠٧٨ ، وأفهمه المستنصر بأن نزارا سيكون ولي عهده ، كان يعطى المستجيبين لدعوته الحشيش الذى اكتشفه فى مصر ، ويوجههم لقتال أعدائه ، وخصوصا بعد أن استولى على قلعة الموت فى ايران سنة ٤٨٣/١٠٩٠ - ١٠٩١ . وان كنا لا نعرف موقف نزار من هذه الجماعة ، بسبب أن الوزير الأفضل بعد هزيمته

له إياه في الاسكندرية ، أخذه إلى القاهرة ، ولم يظهر له خبر .
على كل حال فإن أتباع هذه الفرقة النزارية ، تمكنوا من قتل
الخليفة الأمر ، وعمره لم يتعد أربعاً وثلاثين سنة ، في ١١٣٠/٥٢٤ .

وقد كان سقوط الأمر صريعاً سبباً في زيادة تعقيد الأمور
بالنسبة للخلافة الفاطمية في مصر ، ولا سيما أنه كان مشكوكاً في
أن هذا الخليفة سيكون له ولي عهد . فقال بعض الشيعة في مصر
إن الأمر ترك إحدى جهاته أي زوجته حاملاً ، وأنه نص على الحمل
قبل وفاته ، وولوا عبد المجيد ابن عمه ، على صورة نائب لانتظار
حمل الأمر ، ولم يبايع بالخلافة . فلما وضعت زوجة الأمر بنتاً ،
بايعوا عبد المجيد بالخلافة وادعوا أن الأمر عهد بها له ، وتسمى
عبد المجيد بالحافظ لدين الله ، أي ضمناً للخلافة الفاطمية
من الضمائم ، فكانت توليته الخلافة مع أنه ابن عم الأمر ، كما فعل
النبي حين أوصى إلى ابن عمه علي ، مع أن النص حتى الأمر كان
ينتقل من أب إلى ابن . وقال شيعة آخرون إن الأمر كان له ولد
اسمه الطيب ، وكنيته أبو القاسم ، وتناقلوا سجلاً بهذا صادراً
من الأمر في حياته إلى السيدة الحرة ملكة اليمن وقتئذ ، وإن كنا
لا نعرف خبر الطيب هذا ، الذي يبدو أن شيعته خوفاً عليه حملوه
إلى اليمن ، حيث انتشرت دعوته فيها .

هذه الظروف المضطربة كانت سبباً في ظهور أحد الوزراء
المستبدين ، الذي كان يتحين الفرصة لاستغلالها ، وهو كتيقات
أبي علي أحمد بن الأفضل السابق ، وكان يتقم على الخلافة الفاطمية ،
لقتل أبيه واعتقالها له . فقام بانقلاب عسكري ناجح ، وفي سبيل
الاحتفاظ بسلطته ، قتل كل من عارضه من رجال الدولة ، وحبس
أفراد بني فاطمة وبخاصة عبد المجيد ، ونقل أموال القصر الفاطمي
إلى داره ، كما فعل الأمر حينما قتل أباه الأفضل . ويبدو أنه عمل

أيضاً على القضاء على عقيدة الشيعة الفاطمية ، فقطع صيغة الأذان
بالحى على خير العمل ، شعار الشيعة في الصلاة ، وكتب اسمه على
العملة ، وخطب لنفسه على المنابر .

ولكن أنصار بقاء الخلافة الفاطمية لم يرضوا أن تضيع دولتهم
على يد هذا الوزير ، فقاموا بانقلاب ناجح بقيادة يانس أحد رجال
القصر ، وقتلوا أباه علي أحمد بن الأفضل ، وأخرجوا عبد المجيد
من سجنه . فلما خرج عبد المجيد اتخذ ألقاباً فخمة لم يسبق
إليها لتأييد نفوذه ، فكان الخطيب في الجامع يقول : « أصلح الله
من شيدت به الدين بعد دثوره ، وأعززت به الإسلام بأن جعلته
سبباً لظهوره ، مولانا وسيدنا امام العصر والزمان أبا الميمون
عبد المجيد الحافظ لدين الله صلى الله عليه وسلم وعلى آبائه الطاهرين ،
حجج الله على العالمين » . وقد استمرت الخلافة الفاطمية تحتفل
بيوم خلاص عبد المجيد من سجنه ، وكان يوم الاحتفال به يعرف
بيوم النصر . فكان قاضي القضاة يتلو على الحاضرين أسماء من
أصيب من الأنبياء والصالحين والملوك بشدة ، حتى يصل أخيراً
إلى ما وقع للخليفة عبد المجيد . وحتى لا يستبد به يانس الذي
وزر له ، وكان قد كونه لنفسه طائفة من الجند عرفت باسمه
« اليانسية » ، تخلص منه بدم السم فقتله في سنة ١١٣١/٥٢٦ ،
وإن قيل إن يانسا مات موتاً طبيعياً .

وبعد لم يتخذ عبد المجيد وزراء ، واعتمد على نفسه في
تصريف الأمور . ولكن أحد أبنائه واسمه الحسن تطلع إلى السيطرة
بعد أن أكله الحقد ، لأن أباه لم يوله عهده ، فنجح الحسن في السيطرة
على الجيش والدولة ، وقتل أمراء الدولة « القواد » وصادر أموالهم ،
وأوقع بين طوائف العسكر بحيث قتل منهم خمسة آلاف ، واعتبر
المؤرخ المقرئ ذلك أول مصائب الدولة الفاطمية . فأهاج تصرفه

المصريين ضده ، واجتمع من العسكر عشرة آلاف ، فاضطر أبوه الى أن يدس له السم فقتله .

فاستوزر عبد المجيد أرمنيا نصرانيا مهاجرا من بلاده اسمه بهرام ، لعله لا يستبد به مثل الوزراء المسلمين ، الا أنه تعصب لمجنسه وكون جيشا منهم ، بلغ عدده عشرين الفا بين فارس وراجل ، وكاد الاسلام يضيع على يديه ، فعزله عبد المجيد بمساعدة رضوان بن ولحشى ، الذى طارده حتى الصعيد ، وحمل على أرمن مصر وأماكن سكنتاهم ، وان أخلى سبيل بهرام نتيجة لتدخل ملك صقلية رجار Roger II . فعاش بهرام بقية حياته فى أحد الأديرة . فاستوزر عبد المجيد بعده رضوان المذكور فى سنة ٥٣١ / ١١٣٧ ، وهو لم يكتف بالألقاب القديمة ، ولا خصائصها التى تدل عليها للدلالة على نفوذه الواسع ، بل أضاف الى بقية الألقاب لقب : ملك ، ومنذ ذلك الحين والوزراء من بعده يتلقبون به . ثم فسد ما بين رضوان وعبد المجيد ، اذ حجر عليه وسلك طريق الوزراء المستبدين ، فدس عبد المجيد عليه من قتله ، ولم يستوزر بعده أحدا ، وباشر الأمور بنفسه الى أن مات .

ولكن موت عبد المجيد كان فرصة لظهور أطماع وزراء جدد ، وخصوصا أنه كان له عدة أولاد ، فنجد أحد كبار رجال الدولة واسمه أبو الفتح محمد بن مصال ، وكان من المغاربة وحارب مع نزار ، وهرب بعد هزيمته ، ثم عفا عنه الأفضل وقربه ، ادعى أن عبد المجيد نص على ابنه الصغير اسماعيل من دون بقية أولاده ، وأنه عينه وزيرا له ، وبذلك أعلن خلافة اسماعيل باسم الظافر لدين الله . فنافسه وال آخر كان على الاسكندرية والبحيرة ، اسمه على بن سلار ، استولى على الوزارة ، وتلقب بالملك العادل فى سنة ١١٤٨/٥٤٣ ، أثناء أن كان ابن مصال فى طلب إحدى العصابات ،

وأرسل ضده وله زوجته المسمى عباسا فقتله ، ولم يكن ابن مصال قد مكث فى الوزارة أكثر من أربعين يوما . ولكى يبقى ابن سلار على نفوذه أخذ فى قتل كل من اعترض على وزارته من أعيان المصريين وقواد الجيش ، اذ لم يكن للخليفة الظافر معه حكم .

وما لبث أن ظهر لابن سلار منافس جديد فى شخص عباس ولد زوجته ، حيث جاء هاربا الى الديار المصرية مع أبيه ، الذى هرب وقتئذ من أخيه ملك افريقية (وهم من آل باديس) . فتزوج ابن سلار أم عباس بعد موت زوجها ، وولاه على الغربية ، ولكن عباسا طمع فى الوزارة وحرض ابنه نصر على قتل ابن سلار فى سنة ١١٥٣/٥٤٨ . وكان نصر بن عباس قد عرف بجراته على الخليفة الظافر ، فخاف عباس أن يؤدى ذلك الى قتلها ، فحرض ابنه على قتل الخليفة ، وادعى ان الذى قتله هما اخواه يوسف وجبريل ، حسدا له على توليته الخلافة من دونهما وقتلهما . ولما أخرج ابن الظافر ، وكان طفلا لا يتجاوز عمره ثلاث سنين ، أجلسه على سرير الملك ، ليعلنه خليفة باسم الفائز . ولما لم يكن القتيلان يوسف وجبريل قد رفعا بعد ، فزع الطفل لرؤيتهما ، وأصيب بخلل فى عقله ظل ملازما له طول مدة خلافته ، التى لم تدم أكثر من ست سنين .

وعلى كل حال أوجد قتل الظافر المناسبة لثورة جنده مصر ، وظهور طامع جديد فى الوزارة يهفو للسيطرة ، هو طلائع بن رزيك والى الصعيد ، لعله من أصل عراقي ، الذى زحف على القاهرة . فهرب عباس وابنه ، وكان أهل القاهرة يلقون عليهما الحجارة ، فدخل طلائع القاهرة وأقام نفسه وزيرا للفائز ، وتلقب بالملك الصالح فارس المسلمين فى سنة ١١٥٤/٥٤٩ . ولكن طلائع بن رزيك الذى بهرته أضواء الحكم استبد بدوره وأخذ فى قتل كبار

قواد مصر ، وأفتى ذوى الرأى فيها ، حتى فر عدد كبير من أهل البلاد وأعياها الى الحجاز واليمن ، وقد فعل ذلك خوفا من أن يشوروا عليه أو ينازعوه الوزارة . ولما استولى على البلاد عين فى جميع ولاياتها أتباعه ، وباعها بأسعار معينة .

فلما مات الفائز ادعى طلائع أنه نص على ابن عمه العاضد ، الذى كان أبوه يوسف أحد الأخوين اللذين قتلتهما عباس ، وكان عمره لا يتجاوز إحدى عشرة سنة ، وزوجه ابنته ، ليبقى على زمام السلطة فى يده ، وذكر نفس الحجج التى قيلت عند تولية الحافظ ابن عم الأمر ، وعمل على الاستبداد به ، حتى قال ابن تغرى بردى عن طلائع : انه أقامه صورة . ولكن استبداده الشديد بالخليفة الجديد وأهله ، أثار الدسائس ضده . مما أدى الى قتله على يد أمراء المصريين (أى قوادهم بتحريض عمه العاضد فعمل على قتلها . وتمكن من ذلك قبل موته فى سنة ١١٦١/٥٥٦ .

ومع ذلك فإن ابن طلائع ، واسمه رزىك ، الذى كان قد تولى مقدمة الجيش فى وزارة أبيه ، أجبر العاضد على أن يفوض اليه الوزارة مثل أبيه ، وأخذ لنفسه لقب العادل . ولكن ظهر له منافس جديد فى شخص والى قوص - وهى عاصمة الصعيد - واسمه أبو شجاع شاور ، حيث كانت ولايتها ذات مركز خاص فى الدولة ، وأعتبرت أكبر منصب بعد الوزارة ، بسبب أن الصليبيين احتلوا الشام ، فأصبحت تجارة مصر والحجاج تمر عن طريقها . فذهب شاور الى القاهرة فى سنة ١١٦٣/٥٥٨ ، فهرب رزىك الى أطيح وأسر هناك ، وحمل الى مصر ليقتله طىء بن شاور ، وكان هو الآخر له طموح أبيه .

ولكن أحد أتباع رزىك واسمه أبو الأشبال ضرغام ، وكان رئيسا لفرقة جنود طلائع الخاصة المعروفة بالبرقية - لأن أفرادها

جلبوا من برقة - أتى الى القاهرة من الصعيد أو من مصر ليشارك لمقتل رزىك ، ويتمكن من قتل ولد شاور الأكبر طىء ويهرب شاور الذى خذله أهل القاهرة لبغضهم له الى الشام ، ليستعين بالسلاجقة (أو الغز) ، وينولى ضرغام وزارة العاضد ، ويتلقب بالملك المنصور . وقد كان هرب شاور والتجاؤه الى سلاجقة الشام ، سببا فى ربط تاريخ الفاطميين الى وقت سقوط دولتهم ، بعجالة السلاجقة .

والواقع ان هذا الاستبداد الوزارى شغل الفاطميين تماما عن السلاجقة ، الذين كانوا قد احتلوا بعض أجزاء فى الشام من أملاكهم وكونوا بها أتباكيات ، وشغلهم أيضا عن الصليبيين الذين تمكنوا بدورهم من تكوين دويلاتهم فيها ، بحيث أن مصر على غناها ووفرة رجالها لم تكن تقوم بشىء ضد أعداء الاسلام ، وانما كان كل مجهودها فى الجهاد ضدهم ، عبارة عن حملات يسميها ابن تغرى بردى تجريدة ، كل منها لا يتجاوز عدده ثلاثمائة الى أربعمائة ، والكثرة من أربعمائة الى ستمائة .

★ ★ ★

هذه هى العناصر الثلاثة التى تبين وقتذاك ، ظروف المسلمين السياسية ، مما هيا لظهور شخصية المكافح صلاح الدين على مسرح الحوادث ، وهى تشخص فى انقسام مسلمى الشرق بين خلافتين احدهما سنية ، والأخرى شيعية ، وأنه قد ضعفت السلطة المركزية فى كل منهما ، بحيث نجح الصليبيون المتعطشون لدماء المسلمين من الاستيلاء على بلادهم فى الشام والجزيرة واستبدلهم . ومن المحقق أن الأقدار هى التى ساقطت صلاح الدين يوسف الى المسلمين ، ليعيد اليهم وحدتهم ، ويوقف خطر الصليبيين .

الفصل الثاني

ظهور صلاح الدين •

تتفق أغلب المصادر التاريخية على أن أصل أسرة صلاح الدين من الكرد ، ولذا أطلق على دولتهم فيما بعد : دولة الاكراد • وقد تعنى كلمة كرد الذئب ، وهى بذلك تدل على طبيعة بلاد الاكراد الجبلية ، التى كانت - كما يظهر - مأوى للذئاب • على العموم لا نعرف من أين جاء الاكراد ، ولعلهم هجرة آرية قديمة ، أشبه بمجوس الفرس ، وان كنا نعرف أنه لما جاء الاسلام اعتنقوه منذ وقت مبكر •

وقد كان الكرد فى أول الأمر يعيشون فى قبائل متفرقة يحكمها أمراؤها ، ويبدو أنهم انتهزوا فتن الخلافة الاسلامية ، وانتشروا فى أماكن عديدة ، حتى أنهم فى وقت الحجاج عامل الخلافة الأموية على العراق ، كانوا قد غلبوا على عامة أرض فارس ، فوجه الى حربهم القائد المعروف يزيد بن المهلب • كذلك انتهزوا ضعف الخلافة العباسية واشتد ساعدهم ، بحيث أن البويهيين ، الذين سيطروا على هذه الخلافة حاربوهم فى أماكن متعددة ، فى سجستان وأذربيجان ، وديار بكر بالجزيرة • لكن مجيء السلاجقة الى العراق ، قضى على نفوذ دويلاتهم ، وبخاصة فى النواحي الغربية من بلاد الجبال الإيرانية ، التى أصبحت تعرف منذئذ بكردستان ، إذ أن سلاطين

السلجوقية كان أحدهم اذا ملك العراق دخلت منطقة الجبال في ملكه .

ومع ذلك رأى آخر ينسب أسرة صلاح الدين الى أصل عربي . حيث كانت قبائل العرب تنزل عند الأكراد وتتزوج منهم ، وهذه الأسرة بالتخصيص من نسل المروانيين فرع بنى أمية : فصلاح الدين هو يوسف بن نجم الدين أيوب بن شادى (أو شاذى) بن مروان الكردى . ولعل ربطها بمروان الكردى - كما يبدو - لا يقصد به اتصالها بجده حقيقى عرف بهذا الاسم ، أكثر مما يقصد به الى أنها من سلالة مروان بن محمد آخر الأمويين ، الذى كانت أمه كردية . فيقول المؤرخ المحقق ابن خلكان : انه لا يعرف لهذه الأسرة جد بعد شادى ، مع أنه اطلع على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك أفرادها . ويقول المقرئى أيضا ان نسبتها الى أصل غير كردى ، هو من أقوال بعض الفقهاء ، الذين أرادوا الخطوة لديها ، لما صار الملك اليها .

كذلك اختلف فى المكان الذى أتت منه هذه الأسرة ، فقول الموصل وسجستان أو دوين بلدة فى آخر حدود اقليم آذربيجان من جهة الشمال فى أرمينية . ولكن من ناحية أخرى ، أجمعت المصادر على هجرتها الى العراق : فجدها شادى هاجر الى بغداد ، التى كان يسيطر عليها السلاجقة ، وأنه تداخل مع أمرائهم ورجال دولتهم بقوة شخصيته ، فمنحوه حكم قلعة تكريت على الضفة اليمنى من نهر دجلة شمال سامرا ، حيث يبدو أن أغلب سكانها كانوا من الكرد . وبعد موت شادى ، أصبح ابنه نجم الدين أيوب وريثه فيها ، فعين عليها دزدارا ، أى حافظا لقلعتها : اذ دز بالفارسية تعنى القلعة ، ودار حافظها ، فكان يعاونه فى حكمها شيركوه - بمعنى أسد الجبل - الملقب أسد الدين ، وهو أخوه الأصغر سنا . فولد لأيوب فى تكريت هذه ابنه صلاح الدين يوسف ، حيث ذكرت تواريخ كثيرة لمولده ، اتفق المؤرخون منها على عام ٥٣٢ / ١١٣٧ .

ولا ريب فى أن تاريخ الأسرة الأول غير واضح ، وان كان يشبه غيره من تاريخ الأسر الحاكمة ، التى كانت تملك إقطاعات سواء أكانت من الترك أم الكرد . ولكن حدثت ظروف ربطت مصائرهما بآتابك الجزيرة وحلب على الخصوص . فقد كان السلطان ملكشاه بناء على نصيحة وزيره المشهور نظام الملك ، الذى كان يسيطر على مملكته ، قد منح آقسنقر التركى حلب ثم الموصل فى سنة ١٠٨٧/٤٨٠ . ولكن بعد موت ملكشاه ، نجد أن تتش أخو السلطان الذى كان يملك الشام ، يقتل آقسنقر هذا لعصيانه له فى سنة ١٠٩٤/٤٨٧ . وقد كان ابن آقسنقر الوحيد عماد الدين زنكى صغيرا ، فلما كبر تمكن من استرجاع أملاك أبيه ، اذ أقطعه سلطان وقته محمود بن محمد بن ملكشاه ، بعض أراضى العراق كواسط والبصرة ، ثم ولاء الموصل وبلاد أخرى فى سنة ١١٢٧/٥٢١ . وكان السلطان محمود قد سلم اليه ولديه : ألب أرسلان وفروخ شاه لتربيتهما ، ولهذا قيل لعماد الدين زنكى آتابك ، لأن الآتابك هو الذى يربى أولاد الملوك ، كما عرفت أملاكه بالآتابكية .

والواقع ان هذا الآتابك كان يعمل لحسابه ، فأخذ يوسع فى أملاكه على حساب بقية الآتابكة الآخرين فى الجزيرة والشام ، وان أظهر أن البلاد التى فتحها لأميره ألب أرسلان بن محمود ، وأنه نائبه فيها . فاستولى على حلب وغيرها من مدن الجزيرة ، وبعض بلاد الأكراد . وأكثر من هذا تدخل عماد الدين فى تولية السلطان فى بغداد بعد موت محمود ، فكان مع مسعود بن محمد بن ملكشاه أخوه ضد الخليفة المسترشد ، الذى كان يؤثر بالسلطنة غيره من أمراء السلاجقة . ولما ذهب عماد الدين لحصار الخليفة فى بغداد ، أرسل اليه الخليفة أحد قواده فهزمه ، فهرب ناجيا بنفسه فى سنة ١١٣٢/٥٢٦ . ولكن بعد ذلك حينما قتل السلطان مسعود الخليفة المسترشد ، عاد عماد الدين الى مركزه الأول . ويبدو أن طموح

عماد الدين الى ترقب موت مسعود ، ليخطب بالسلطنة لألب أرسلان - الأمير الذي رباه - كما يملك بغداد وسائر الممالك باسمه .

وثمة أمر آخر : هو أن عماد الدين طمع في أخذ آتابكية دمشق الواقعة في وسط الشام ، وضمها الى أملاكه . فهذه الآتابكية ، التي أسسها طغتكين أو طغديكين آتابك دقاق بن تتش بعد موته ، حيث كان تتش أبوه ، هو الذي قتل آقسنقر أبا عماد الدين . وكانت هذه الآتابكية قوية في عهد بوري بن طغتكين ، الذي قتله الاسماعيلية بالشام . وبعد بوري تولى ابنه اسماعيل ، واسترد أملاكه من التي أخذها عماد الدين ، الا أنه كان ظالما فحدثت مؤامرة من أحد مماليكه فقتلوه ، ولعلها أيضا باتفاق مع امه . فانقسم الأمراء على أنفسهم ، وولوا عليهم أميراً صغيراً هو أخوه محمود بن بوري ، حيث سيطر عليه معين الدين أنر مملوك جده طغتكين . ولكن محموداً قتل غيلة ، فولى معين الدين أخاه جمال الدين محمد ، وتزوج بأمه ، ليبقى على سيطرته . وقد أراد عماد الدين أن يستفيد من هذه الظروف القلقة ، وفكر في ضم الآتابكية الشامية بالزواج من الخاتون أم محمود ، التي دعت له ليأخذ بثأر ابنها . فقدم عماد الدين الى دمشق ، وحاصرها في سنة ١١٣٩/٥٣٤ ، ولكنه لم يستول عليها بسبب أن معين الدين طلب المساعدة من الفرنج ، وأن جمال الدين كان قد توفي ، وعين معين الدين بعده مجير الدين بن جمال الدين .

كذلك كان هذا الآتابك متحمساً لحرب الصليبيين ، بحكم وجود أملاكه في شمال الجزيرة وحب ، ملاصقة لامارتى الرها وأنطاكية الصليبيين القويتين ، وكان يرى أن الضرر كبير بوجود إمارة الرها وسط بلاد الجزيرة قريبة من بغداد مركز الخلافة العباسية ، بحيث أن غارات الفرنجة منها عظم شرها ، وامتدت الى أقاصي بلاد الاسلام . فيذكر له المؤرخون انه كان لا ينقض عليه

عام ، حتى يفتح بلاداً من بلادهم ، بحيث اشتهر بالشهيد ربما لرغبته في الاستشهاد . ولعل أهم انتصاراته عليهم ، هو فتحه مدينة الرها ، التي اعتبرت من أشرف المدن وأشهرها عند النصارى لكثرة قديسيها ، وذلك بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً في سنة ١١٤٤/٥٣٩ . فلما دخلها قتل كل من فيها من الصليبيين ، وجمع رؤوس القتلى وبني بها منارة اذن عليها ، ونكس صلبانها وأباد رهبانها ، ورتب العساكر الاسلامية . وبذلك خلص الاسلام من خطرها ، بحيث شبه الانتصار فيها بالانتصار في غزوة بدر ، وبعدها لم يبق من دويلات الصليبيين غير ثلاث ، هي : أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس .

وقد انتشر خبر الاستيلاء عليها في كل مكان حتى في أوروبا ، وذاع صيته دون بقية الآتابكة عند الصليبيين . وقد قدر ملك اليونان في بيزنطة خطره وخرج في جيوش كثيرة من اليونان (الروم) والأرمن والفرنجة ، بقصد الاستيلاء على حلب من أملاك عماد الدين ، واضطر عماد الدين الى طلب العون من بغداد ، وذلك لاعتقاده بأنه اذا ذهب حلب لم يبق بالشام اسلام . ومع أن السلطان والخليفة لم يهتما اطلاقاً بطلب عماد الدين ، فقد استطاع أن يرغم ملك اليونان على التقهقر ، واستولى على بعض الثغور بين الشام وأنطاكية ، لتقوية مركزه .

★ ★ ★

ولا ريب أن أسرة صلاح الدين قدرت في الآتابك عماد الدين زكي أطماعه وطموحه ، فعمدت الى ربط مستقبلها بعجلته . وقد كان هروبه بعد هزيمته في حصار الخليفة ببغداد ، هو مبدأ المعرفة الاولى كما يؤكد ابن واصل في كتابه : مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب ، لأن أيوبا استضافه في تكريت ، مع أن في ذلك تحدياً

للخليفة . فلما عادت الأمور الى نصابها ، عرف عماد الدين لأيوب وأهله هذا المعروف ، وخصوصا أنهم كانوا قد اضطروا لترك تكريت لأسباب غير واضحة ، ربما خوفا من غضب الخليفة ، فأخذهم فى خدمته بالموصل ، مما يدل على ان أقامتهم فى تكريت لم تطل بعد ولادة صلاح الدين . وحينما فتح بعلبك ، وهى مدينة قريبة من دمشق من جهة الساحل سلمها الى أيوب ، وجعله أميرا عليها فى سنة ١٣٤٩/٥٣٤ . ولا شك أن صلاح الدين ترعرع فى هذه المدينة ، وان لم تكن لدينا تفاصيل عن طفولته أو فترة بلوغه . ومن المؤكد أن أباه أيوب أحسن تربيته ، فيصف ابن الأثير أيوبا بأنه كان له عقل ورأى وحسن سيرة . كذلك ليست لدينا معلومات مفصلة عن أيوب وأخيه شيركوه فى هذه الفترة ، ولعلهما كانا يشاطران عماد الدين فى حروبه ضد الصليبيين ، أو ضد الأتابكة السلاجقة الآخرين .

وقد بقي أيوب وأهله فى خدمة هذه الأتابكية ، حتى بعد قتل عماد الدين على يد غلمانه فى سنة ١١٤٦/٥٤١ ، اذ أسرع ابنه غازى ونور الدين الى الاستيلاء على أملاك أبيهما ، ولا سيما أنها قد خلصت لهما بقتل ألب أرسلان ، الذى كان عماد الدين يظهر أنه نائبه ، فأخذ الأول وهو الأكبر الموصل وبلاد الجزيرة ، واستولى الثانى على حلب . ولكن أطماع معين الدين أنر المسيطر على أتابكية دمشق ، نتيجة لموت عماد الدين ، دفعته الى مهاجمة بعلبك التى كان فيها أيوب ، فسلمها له أيوب ، وانتقل هو وابناؤه معه الى دمشق ، وأصبح أحد قواد هذه الأتابكية . ويذكر المؤرخون أنه سلمها له خوفا من أن ولدى زنكى لا يمكنهما انجاده ، لانشغالهما بتوطيد سلطانهما ، ولأنه عوضه عنها عشر قرى من بلاد دمشق . وعلى النقيض اتصل أخوه شيركوه بخدمة نور الدين صاحب حلب ، وصار مقدم عسكره ، واقطعه أيضا الاقطاعات بما فيها حمص .

ويظهر لنا هذا التصرف من جانب الأخوين غامضا ، فربما كان لهما اطماع خاصة فى السيطرة على الأتابكيتين ، بأن وزعا شخصيهما بينهما ، أو أنه على الأقل كان هناك تدبير سابق بين نور الدين وأيوب للسيطرة على أتابكية دمشق ، أو حتى لتفادى القتال فى الوقت الذى كانت هناك حملة صليبية جديدة تتجه من أوروبا نحو الشرق .

وعلى كل حال نجد الأخوين يشاركان الأتابكيتين ، خطر الحملة الصليبية الثانية ، التى قامت من أوروبا على أثر استيلاء عماد الدين على إمارة الرها . وقد جاءت هذه الحملة الثانية بعد موت عماد الدين ، بقيادة ملك فرنسا لويس السابع «Louis VII» وملك الألمان كونراد الثالث «Konrad III» ، فاخترقت جنودهما بلاد وسط أوروبا ، واتجهت نحو القسطنطينية ، ولكن الترك السلاجقة فى آسيا الصغرى تمكنوا من القضاء على الجزء الأكبر من جيوشهما فى ١١٤٦/٥٤١ ، وبقي الملكان مع قلة وصلا بها بحرا الى أنطاكية . وهناك قام أمير أنطاكية الفرنسى بالمكائد ضد ملكه ، فرجع ملك فرنسا الى بلاده وبذلك لم تماس أملاك نور الدين وأخيه غازى . ولكن كونراد سار نحو أتابكية دمشق ، مع أن هدفه كان استعادة الرها ، حيث لحق به عندها ملك بيت المقدس ، وحاصرها سنة ١١٤٨/٥٤٣ . فاشترك أيوب مع معين الدين فى صدده عنها ، كما جاء غازى ونور الدين لنصرتهم ، ولكن معين الدين أنر ، الذى خاف على ملكه من ولدى عماد الدين ، أرسل الى الفرنجة ، وصالحهم بتسليم بعض القلاع والمال .

هذه الحملة الصليبية الثانية ، ومصالحة معين الدين للفرنجة . جعلت نور الدين الذى أصبح أكبر الأتابكة الزنكيين ، بعد وفاة أخيه الأكبر غازى فى الموصل سنة ١١٤٩/٥٤٤ ، وتنازل أخيه

الأصغر قطب الدين مودود عن أملاكه في الشام لقاء وراثته أملاك أخيه غازي بالجزيرة ، يفكر جديا في الاستيلاء على أنابكية دمشق ، وضمها لأملاكه ، كما كان أبوه يريد من قبل . والذي جعله يعجل بذلك ، هو استيلاء الفرنجة على عسقلان أكبر معاقل المصريين في الشام سنة ١١٥٣/٥٤٨ . ولأنه قوى أملهم بعد ذلك في أخذ دمشق ، وتابعوا الغارة عليها ، ولا سيما أن المملوك معين الدين أنر كان قد توفي ، وضعف مجير الدين صاحبها ، ووعد الفرنجة بتسليم بعلبك . ويبدو أن الخليفة العباسي المقتفى لأمر الله هو الذي حث نور الدين على تحقيق هذه الأطماع ، فمنحه تقليدا على البلاد الشامية ، وكذلك المصرية ، التي كانت هي الأخرى تعاني الاضطرابات ، بسبب مقتل الخليفة الظافر في سنة ١١٥٤/٥٤٩ . وقد دبر نور الدين الأمر بينه وبين أيوب في دمشق عن طريق أخيه شيركوه ، بحيث يقول المقرئ أن أيوبا عمل كثيرا في أخذ دمشق لنور الدين ، فسلم المدينة إلى أخيه شيركوه لما حاصرها في سنة ١١٥٤/٥٤٩ . فنقل نور الدين إليها مركز حكمه ، بعد أن تركها مجير الدين إلى العراق ، وعين أيوبا حاكما عليها ، وشيركوه نائبا عنه ، وصلاح الدين رئيسا لشروطه « الشحنة » ، وكان قد بدأت تظهر عليه أمارات الذكاء والشجاعة التي تعلمها من نور الدين . ومن المحقق أن أسرة صلاح الدين ، تمكنت تماما في دولة نور الدين ، وأن صلاح الدين بدأ يدخل مسرح التاريخ .

★ ★ ★

وبينما كان نور الدين يوطد حكم دولته ، التي اتسعت من حلب إلى دمشق ، إذ جاءه شاور الوزير الفاطمي سنة ١١٦٣/٥٥٨ ، طالبا النجدة والعساكر ضد ضرغام الذي طرده من الوزارة واستولى عليها ، فاطمه في الديار المصرية ، ووعد به بحصة من خراجها مقدارها الثلث سنويا ، ويمنح جنده الاقطاعات ويقومون في مصر ، ويكون

متصرفا تحت أمره ونهيه . ويلاحظ المؤرخون أن نور الدين قد تردد أول الأمر في اجابة شاور إلى طلبه ، بسبب توسط الفرنجة بينه وبين الديار المصرية ، إلا أنه قبل تحت الحاح شيركوه ، الذي كان يرغب بشدة في الذهاب على رأس الحملة إلى مصر ، وربما يكون الدافع على تحريض شيركوه لنور الدين ، أنه فكر في تأسيس ملك فيها لأسرته ، إذ يبدو أنه كان متفقا في ذلك مع أخيه أيوب ، بدليل اصطحاب صلاح الدين ، الذي لم يكن قد تجاوز خمسة وعشرين عاما . وعلى النقيض يظهر أن صلاح الدين نفسه لم يكن متحمسا للمغامرة في مصر ، فيروي أنه قال : « خرجت مع عمي كارها وأنا كمن يقاد إلى المذبح » . ونحن نرى أن قبول نور الدين لطلب شاور راجع إلى الرغبة في استعلام أحوال مصر التي وصلت إلى الضعف ، وعلى الخصوص إلى ما يمكن الحصول عليه من الفوائد بتقوية المسلمين إذا ما اتحدت معه قوى مصر الوافرة الثراء بالمال والرجال ضد الفرنجة ، إذ لا يبدو أنه كان يقصد وقتذاك فتحها وضمها إلى ملكه بالشام .

ويظهر أن شاور لم يكن يرغب في حضور شيركوه وصلاح الدين ، ولعله كان يظن أن نور الدين يكل قيادة الحملة إليه ، ولكن أسقط في يده لما جهز نور الدين عسكره من الترك بقيادة شيركوه وسار لشغل الفرنجة بالغارات ، حتى يصل جيشه سالما إلى مصر ، فلما وصل شيركوه إلى بلبيس شرقي القاهرة ، خرجت عساكر البرقية المذكورة من قبل ضرغام بقيادة أخيه ناصر الدين ، لقتال الجيش التركي ، ولكن عسكر شيركوه أجبروه على التقهقر نحو القاهرة : فلما دخل جيش شيركوه القاهرة خرج ضرغام لملاقاة شاور ، وحدث قتال عنيف اشترك فيه أول الأمر الجند المصريون والسودانيون - وهم من طوائف الجيش الفاطمي - خوفا من الغز (أي الترك) القادمون مع شاور ، فانتصروا عليهم في

القاهرة ، وبقي ضرغام أيما يقاتلهم . ولكن كره الجند الفاطميون ضرغاما لأمر منها قتله قوادهم « أمراءهم » ، وأعيان البلاد ، إذ كان يأخذ بالظنة حتى بين أصحابه وأفراد أسرته ، جعلهم ينحرفون عنه ، مما دعا الخليفة العاضد بدوره الى التخلي عن تأييده له ، فاستطاع شاوور بمماليكه وعربانه أن يهزم ضرغاما ويقتل أخاه . وبعدها تولى شاوور الوزارة للخليفة العاضد ثانية وتلقب بالملك المنصور ، وكتب العاضد سجلا له بتفويض الوزارة ، وذكر أنه ما اختاره الا لحنكته في السياسة والتدبير ، ودعاه الى المحافظة على دعوة الفاطميين ، كما قلده ابنه الوزارة نيابة عن أبيه .

فلما حصل شاوور على الوزارة ظهرت منه امارات الغدر بجيش الترك ، الذي كان يقيم بظاهر القاهرة ، وأرسل الى شيركوه يطلب منه الرجوع الى الشام . فامتنع شيركوه ، وأسرع الى بلبيس ، بناء على اشارة صلاح الدين - الذي بدأت تظهر كفاءته الحربية أيضا - للتحصن بها . فأخذ شاوور ، الذي رأيناه من قبل قد استدعى الترك ووعدهم بامتيازات ليحتفظ بمنصب الوزارة ، يعمل على الاتصال هذه المرة بالفرنجة ، ويدعوهم الى اخراج جند شيركوه ، ووعدهم بمال كثير اذا رحل عسكر نور الدين . ولعل شاوور كان يستهدف من وراء ذلك ، أن يستفيد من نزاعهما بالانفراد بالبلاد . فبادر الفرنجة اليه ووجدوا في دعوته الفرصة المناسبة ، لا سيما أنهم كانوا قد عرضوا مساعدتهم من قبل على ضرغام - ويسمونه Dargam - اذ قدروا خطورة الاتحاد بين مصر ونور الدين في الشام ، فيقول ابن واصل : انهم قد خافوا خوفا شديدا اذا ما تحقق ذلك ، وأيقنوا بالهلاك ، وأن بلادهم تستأصل . فاجتمعت جيوشهم بقيادة ملك بيت المقدس المسمى أمالريك «Amalricus» ، والمعروف أيضا بعموري «Amauri» ، ويسميه العرب غالبا في كتبهم مري ، وحاصروا شيركوه وصلاح الدين في بلبيس ، يساعدهم عسكر

شاوور من العربان والسودان ، فقاومهم جيش شيركوه حتى أعياهم مدة ثلاثة أشهر ، وانتهى الأمر بعقد اتفاق بمقتضاه خرج شيركوه والصليبيون من مصر ، وخاصة أن نور الدين أخذ كعادته في الاغارة على أطراف أملاكهم ، ليخلص جيوشه من هذا الحصار ، وأرسل بالأعلام التي غنمها منهم ، لتنتشر على أسوار بلبيس مما أزعجهم ، وجعل عموري يسرع بالعودة الى بلاده . وهكذا انتهت حملة شيركوه وصلاح الدين الأولى على مصر ، ومدح الشاعر المعروف عمارة اليمنى شاوور على حسن سياسته ، كما مدحه شعراء آخرون .

ولكن شيركوه ، الذي رأى ضعف حالة مصر ، بحيث وصفها بأنها بلاد بغير رجال ، أخذ يحرض من جديد نور الدين لارساله على رأس حملة ثانية ، وقبل نور الدين ذلك . فخرج شيركوه في سنة ١١٦٧/٥٦٢ ، ومعه هذه المرة أيضا ابن أخيه صلاح الدين ، ودخل مصر عن طريق ساحل البحر الأحمر من ناحية الصعيد ، ثم نزل الجيزة قبالة مصر (أو الفسطاط) ، حتى لا يحاصر في بلبيس مرة أخرى . فلما وصل جيش شيركوه ، أرسل شاوور ثانية الى الفرنجة يستنجد بهم ويعددهم بالمال ، فأتاه عموري الى الجيزة ، وأرسل رسله الى قصر العاضد للاتفاق على المبلغ الذي يدفع له لقاء اخراجه شيركوه ، حيث تركوا لنا وصف أبهة قصر العاضد . فحاربهم شيركوه وهزمهم حين حاولوا عبور النيل على جسر أقاموه ، ولكن بسبب قلة جنده اتجه الى الصعيد ، فلما تابعوه هزمهم بفضل مهارة صلاح الدين في مكان اسمه البابين جنوبي المنيا الحالية ، ونجا عموري بحياته بمعجزة ، وكان هذا من أعجب الانتصارات لقلة عسكر شيركوه ، الذين هزموا شاوور والصليبيين معا ، إذ صمم جنده ألا يسلموا مصر للكفار . ثم سار شيركوه الى الاسكندرية ، التي رفض أهلها وأعيانها أن يسلموها الى شاوور لأن معه الصليبيين ،

وسلموها لشيركوه وكانوا قد راسلوه من قبل ، فتركها شيركوه لابن أخيه صلاح الدين ، وعاد هو بقسم من جيشه الى الصعيد ، ربما ليشنت قوى أعدائه . ومن الطريف أن نذكر أن تسليم الاسكندرية الى شيركوه راجع أيضا الى أن أهلها كانوا من السنة الذين يكرهون التشيع ، وذكر هذه المعارضة المبكرة للفاطميين نجدها في الوثائق المعروفة بالسجلات المستنصرية ، فكان كل ثائر على الخلافة الفاطمية يلتجئ اليها . فحاصرها شاور حوالى أربعة أشهر تناصره مراكب الصليبيين ، حيث كانوا يتوقون للاستيلاء على هذا المرفأ الهام على البحر الأبيض ، فكافح عنها صلاح الدين وأهلها كفاحا شديدا ، حتى انه قال عند ذكر هذه الحقبة : « والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت اليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق ، ما لا أنساه أبدا » . وقد سأل شاور أهل الاسكندرية أن يسلموه صلاح الدين ، ويرفع عنهم الضرائب ، بخاصة المكوس - ضريبة الأسواق البغيضة - الا أنهم رفضوا أن يسلموا المسلمين الى الفرنج على حسب قولهم . عندئذ سعى شاور الى انصلح وقبله شيركوه لسوء موقف جيشه ، وليخرج الصليبيين من مصر بأى ثمن ، فاتفق على أن يتركها لقاء مبلغ من المال ، على أن يخرج الصليبيون أيضا ، ولا يتسلمون أية قرية ، وأن تعاد الاسكندرية الى المصريين . ومع تظاهر الصليبيين بقبول ذلك ، الا أنهم وافقوا لقاء خروجهم من مصر ، على أن يكون لهم أبواب القاهرة حامية « شحنة » ، وأن يدفع لهم شاور بعض المال . فوافق شاور على ذلك ، حيث كان يرى أن الأموال وحدها هي التى تسيطر ، دون المبادئ .

ومن المحقق ، أن هذا التدخل أثبت بوضوح أن مصر لم تعد فى أيدي الفاطميين ، وانما أصبحت بيد القوتين المتسابقتين عليها ، وهى الدولة الغزية (التركية) النورية ، وفرنجة بيت المقدس ،

وبالآحرى فى يد شاور الوزير المستبد ، الذى كان لا يهمه غير الاحتفاظ بمنصب الوزارة . ومما زاد الطين بلة ، أن الصليبيين صمموا هذه المرة على سباق جيش نور الدين فى الوصول الى مصر بغية احتلالها ، مخالفين بذلك سابق عهدهم . ولكي يدير عمورى حملته على مصر سعى الى الاتفاق مع البيزنطيين ، وتزوج ابنة أخى ملك بيزنطة مانويل « Manuel » (١١٤٣ - ١١٤٨ م) ، للترتيب معه على عرش مملكة بيت المقدس . وقد ترك لنا المؤرخ الصليبي وليم الصورى « Willero Mo Tyrensi » ، صورة للاتفاقية التى وقعها بنفسه نيابة عن عمورى : فقد اتفق الطرفان على أن تكون رئاسة الحملة لعمورى ، وأن يطيع القائد البيزنطى فى كل ما يأمر به . ومع أن عمورى نفسه كان يفضل انتظار وصول الجيش البيزنطى ، الا أن فرسان مملكته ، وذوى الرأى فيها ، أشاروا عليه بقصد مصر لفتحها لحساب مملكتهم ، والتقوى بها فى نزاعهم مع نور الدين ، اذ كان اعتقادهم أن فتحها سيكون سريعا ، بسبب أنه كان لهم بأبواب القاهرة حامية ، وأنهم تحكموا فيها . فأسرع عمورى على رأس الفرنجة بالدخول الى الريف المصرى شرقى الدلتا أو ما يعرف بالحوف الشرقى فى سنة ١١٦٨/٥٦٤ ، فارتكبت جيوشه فى بلبيس - أهم مدن الحوف - فظائع تذكر بما حدث عند فتح الفرنجة بيت المقدس ، فكانوا يقتلون الرجال والنساء والشيوخ ، مما يدل على نيات الغزو الحقيقية عند الفرنجة هذه المرة .

خاف شاور الفرنجة ، ولا سيما أنه أرسل الى عمورى يسأله عن سبب مسيره ، فاعتل له بأن هذا هو رأى الفرنجة بالشام ، وأنه يريد بعض المال . عندئذ قدر شاور نياته وقرر مقاومته ، فجمع جالية الفرنجة فى مصر ، وقتل منهم جماعة كبيرة ، وحفر خندقا وبنى حصنا ، وجعل الفقهاء يحضون الأهالى على القتال ، ثم أحرق مصر أو الفسطاط ، وأمر أهلها بالهجرة الى القاهرة ، بقصد

عرقلة زحف الفرنجة ، وهي العاصمة القديمة التي أنشأها عمرو بن العاص عند فتح العرب مصر ، وازدهرت - على حسب وصف الرحالين - في جنوب القاهرة العاصمة الجديدة للمفطميين ، بحيث توافرت فيها جميع وسائل الحياة ، وفاضت أسواقها بالمنتجات التي تأتيها من كل أجزاء الدنيا ، إلا أن المجاعات والفتن التي حلت بالدولة الفاطمية في عهد المستنصر ومن جاء بعده من الخلفاء ، كانت ضربة قاصمة لازدهار هذه المدينة ، فتلاشت أهميتها ، كما تلاشت أحيائها الشمالية مثل العسكر والقطائع . ويذكر المقرئ أن شاور استخدم في حريق مصر أو الفسطاط عشرين ألف قارورة نفط ، وعشرة آلاف مشعل نار ، وقد ظلت النار مشتعلة فيها أربعة وخمسين يوما ، وكان الدخان يرى من مسيرة ثلاثة أيام ، بحيث أن هذا الحريق أطاح بجميع عمائر المدينة ، وأحرق جانبا من جامعها العتيق (جامع عمرو) ولا تزال آثار هذا الحريق موجودة الى وقتنا الحاضر في التلال المعروفة بالكوم أو الكيمان في منطقة مصر القديمة . وقد أوقف حريق الفسطاط تقدم الفرنجة في البلاد ، فحاصروا القاهرة وضربوها بالمجانيق - وهي من أدوات الحصار لقذف الأحجار والنار - إلا أن أهلها ، قاوموهم بحماس شديد ، أشار اليه معظم المؤرخين .

قدر نور الدين - هو الآخر - الخطورة المترتبة على تحركات الفرنجة باحتلال مصر ، فأسرع بإرسال شيركوه ومعه صلاح الدين على رأس حملة ثالثة ، وكان ينوى أن يذهب بنفسه . ويورد المؤرخون أسبابا أخرى لإرسال هذه الحملة ، منها ، أنها أرسلت بناء على طلب الخليفة العاضد ، الذي أرسل الى نور الدين شعور نسائه ، وكتب اليه يستصرخه ويقول : « أدركني واستنقذ نسائي من أيدي الفرنج » ، أو بناء على دعوة الوزير شاور نفسه الذي قدر هو الآخر خطورة الموقف ، أو بناء على دعوة أهل مصر ، الذين كانوا يرسلون نور الدين في أثناء الحصار . وعلى كل حال لا نستبعد

أن يتعاون المسلمون على اختلاف مذاهبهم ضد عدوهم الصليبي . فلما سمع الصليبيون بتحريك عساكر نور الدين ، وجدوا أنفسهم في هذه المرة على عكس المرات السابقة مضطرين الى قتال عساكر مصر والشام موحدة ، قبلوا الصلح مع شاور ، الذي عرض عليهم مائة ألف دينار ، على أن يرد اليهم بقية مليون دينار أخرى فيما بعد . فلما قرب جيش نور الدين من القاهرة ، رحل الفرنجة عنها ، وكان هذا على حد تعبير ابن واصل المؤرخ : من أجل الفتوح وأعظمها ، إذ لو استولى العدو ، لعنه الله - على الديار المصرية ، لاستولى على سائر الحطة الاسلامية .

ويظهر أن حيل شاور في سبيل الاحتفاظ بمنصب الوزارة لم تكن قد انتهت ، فاراد تدبير مؤامرة لقتل شيركوه ومن معه ، وإخراج جيشه من مصر . وربما كان من الممكن أن ينجح في تدبير ذلك ، إلا أنه نسي أن يقدر حقيقة كره المصريين له ، وأثر ذلك في قلب خططه . فهؤلاء رأوا في مواقفه السابقة في طلب العون من الصليبيين تهديدا هائلا لبلدهم وخيانة كبرى للإسلام ، حتى أنهم عنفوه في سبيل ذلك . وتجد أن جماعة منهم على رأسهم شخص اسمه ابن الخياط ، يسعون الى أخذ الوزارة منه ، ولكن شاور استطاع إخماد ثورتهم ، واستبد بالمصريين . وقد رأينا أن هزيمته هو والصليبيين في حملة شيركوه الثانية ، ترجع على الخصوص الى أن المصريين خذلوه ، حيث سبق ذكر تسليم أهل الاسكندرية مدينتهم لصلاح الدين ، وأن شاور لم يكن يعتمد في محاربة شيركوه في واقع الأمر إلا على طائفة من جنده الخاصة - العربان والسودان - إذ جرى وزراء مصر منذ عهد مبكر على تكوين طوائف خاصة لهم من العسكر . وقد زاد كره المصريين له بسبب سوء سياسته بحرق مصر أو الفسطاط ، فقد كثير منهم بيوتهم ومتاعهم ، وبقيت مصر مدة لا يسمع فيها أذان ، ولا يوقد فيها مصباح ، كما أنهم بعد هجرتهم

الى القاهرة لقوا شظف العيش ، وأقاموا أثناء حصارها مطروحين في المساجد ، والحمامات والأزقة ، وعلى الطرقات بيعالهم وأولادهم . فلما جاء عسكر نور الدين ، أحضر شيركوه أعيان المصريين وأظهر لهم أسفه لمصابهم ، وسفه رأى شاور في احراقه الفسطاط . ويقول ابن تغرى بردى - وهو مؤرخ مصرى - ان الأمراء المصريين في الجيش الفاطمى ، اتفقوا على قتله .

ومع ذلك ، فان الذى قتله صلاح الدين وشيركوه ، لتحقيق أطماعهما في مصر ، بعد أن علقت مخالبيهما بالبلاد . وقبل أن يقتلاه أخذوا اقرارا من العاضد ، الذى كان شاور قد استبد به طول فترة وزارته مثل بقية وزراء التفويض ، بأنه هو الذى طلب قتله لحياتته للمسلمين ، وممالأته للأجانبى . فتجد صلاح الدين يشرف بنفسه على تدبير المؤامرة لأنه لا يجسر عليها غيره ، وذلك في أثناء زيارة شاور لشيركوه ، الذى كان مضطرا الى أن يظهر له الود ، وان تعمد شيركوه الخروج لزيارة ضريح الامام الشافعى ، فقبض صلاح الدين على شاور وكتفه ، وأخذ ليقتله . ثم لما دخل ولد شاور واخوته الى القصر الفاطمى معتصمين قتلوا ، وربما كان ذلك أيضا بتحريض من شيركوه وصلاح الدين . وهكذا انتهت حياة هذا الوزير الخائن ، الذى كان همه الاحتفاظ بمنصبه ، وفرح الناس فرحا عظيما لموته .

وقد كان قتل شاور ازالة للعقبة أمام شيركوه في تحقيق أطماعه في مصر : فقد أخذ مكانه في الوزارة ، اذ لم يكن العاضد يستطيع أن يرفض طلبه لضعفه ، ولقبه بالملك المنصور وهو نفس لقب شاور السابق ، وخرج له سجل طويل أوردته لنا القلقشندى يعتبر من الوثائق الهامة ، فقد أصبح شيركوه : السيد الأجل ، الملك المنصور ، سلطان الجيوش ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى

دعاة المؤمنين ، أى أنه سيطر على كل شىء في الخلافة الفاطمية بما فيها من جيوش وقضاة ودعاة المذهب الشيعى . ونلاحظ أنه تسمى بسلطان الجيوش ، وليس بأمير الجيوش لقب الوزراء السابقين ، ربما لأنه كان مسيطرا على جيش الخليفة الفاطمى والجيش التركى ، الذى جاء به من الشام . وقد احتفظ العاضد لنفسه اسميا بحق توليه الدعاة والقضاة ، ولأن شيركوه كان سنى المذهب ، فان سجلات توليتهم كانت تخرج بالضرورة من ديوان الانشاء باسم الخليفة ، وان كان شيركوه في واقع الأمر قد حجر على تصرفات العاضد كلها .

ولكن شيركوه توفي أو قتل بالسم ، ولم يمكث في الوزارة أكثر من شهرين ، فتولاها بعده ابن أخيه صلاح الدين ، وتلقب بالملك الناصر ، وان غلب عليه اسم السلطان دون أن يتلقب به ، مثل وزراء الفاطميين قبله ، وذلك في ٢٥ من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ / ٢٦ مارس ١١٦٩ . وقد كتب له العاضد سجل الوزارة « منشور » بخط يده ، مع أن الخلفاء الفاطميين لا يكتبون الا نادرا ، ورد فيه : « هذا عهد لا عهد لوزير بمثله » ، واحتوى على تخويله نفس السلطات ، التى خولها لعمه شيركوه بالسيطرة على الجيش والقضاة والدعاة ، فخرج سجله في قماش أبيض ، وألبسه العاضد أمام جمع عظيم من موظفى الدولة خلعة الوزارة في يوم مشهود ، وهى جميعها بيضاء شعار الفاطميين ، وتتكون من عمامة لها طرف « ذؤابة » زى أمراء مصر « القواد » ، وثوب مطرز بالذهب - لعله دراعة وهى ثوب قصير مشقوق من أمام محلى بعري وأزرار - وجبة بطراز من الذهب ، وعقد جوهر من زى وزراء مصر ، ورداء يلقي على الكتف « طيلسان » زى القضاة الفاطميين ، فضلا عن خيل وسروج وأشياء أخرى .

قضاؤه على الخلافة الفاطمية •

ومن المؤكد أن صلاح الدين بعد توليته وزارة العاضد ، وضع نصب عينيه أن يقوم بدور رئيسي في سياسة المسلمين ، اذ لا يذكر المؤرخون له قبل ذلك ظهور أطماع مبكرة ، وإنما كان يسير وراء عمه شيركوه وهو كاره في الغالب ، كما يروون تعفقه عن التعيين في الوزارة بعده • ونحن لا نستبعد تولد الطموح عنده الى السؤدد والرياسة ، وقد أحس بأن الأقدار وضعت في وزارة العاضد الضعيف ، لترسم له بيدها طريقه الذي عليه أن يشقه ، فضلا عما شعر به في نفسه من كفاءة حربية وسياسية ، منذ أن قدم مع عمه في حملات مصر • ويمكننا أن نجزم بأن أهداف صلاح الدين كانت تتلخص فيما وضع أمام عينيه : من تحقيق وحدة المسلمين ودفع خطر الصليبيين ، اذ اليه والى عمه يرجع الفضل في أن مصر بقيت للمسلمين •

وكخطوة أولى نحو طموحه ، قرر ضرورة القضاء على الخلافة الشيعية ، وعودة المصريين الى المعسكر السني حتى يتمكن المسلمون في الشرق من توحيد صفوفهم أمام الصليبيين ، الذين استفادوا من هذا التشتت كما رأينا ، وشارك هو بنفسه في وقف حملاتهم • يضاف الى ذلك أن عقيدة صلاح الدين المذهبية كانت سنية ، ولم

وقد أثر حول تولية صلاح الدين الوزارة أقوال كثيرة ، منها : انه تولاها نتيجة لتوصية سابقة من شيركوه ، أو أن العاضد منحه اياها لظنه أنه أصغر القواد « الأمراء » النورية سنا ، ليكون تحت يده ، اذ لم يكن عمر صلاح الدين يزيد عن اثنتين وثلاثين سنة ، وأنه أحس أنه مثل شيركوه له طموح قد يستغله لمصلحته في معارضة نور الدين ، وان كان سجل التولية يقول : انه اختاره لأنه جمع بين حكمة المشيب ، ومضاء الشباب ، أي لقوة شخصيته ، التي يبدو أنه لم يكن يوجد أقوى منها بين أمراء نور الدين بعد شيركوه • ونحن أيضا لا نستبعد أن يكون العاضد قد ألزم بتوليته ، كما ألزم بتولية عمه من قبل ، بناء على اتفاق أغلبية الأمراء النورية ، فهو لا يلبث أن يكون معه كالمحجور عليه ، لا يتصرف في الأمور الا بعد مشورته •

وبتولية صلاح الدين الوزارة الفاطمية ، فتحت صفحة جديدة في تاريخ مستقبله الباهر ، اذ أنه - في مصر - ظهر ما كمن في شخصيته من صفات السياسة والحنكة ، كما أنه أصبح أبرز فرد في أسرته ، بل أبرز من أبيه أيوب نفسه •

يكن عنده باعث ديني على أن يؤمن بأحقية الخلافة الفاطمية وانتسابها الى بيت النبي كما تدعى ، أو بمبادئها الشيعية حتى يبقى عليها . كذلك كان نور الدين ، وهو الذي أرسله وعمه الى مصر ، مثل بقية الترك السلاجقة متعصبا للعباسيين ، فكتب الى صلاح الدين بضرورة قطع الخطبة عن اسم العاضد ، وجعلها للخليفة المستنجد بالله العباسي ، فضلا عما يترتب على ذلك من خضوع مصر لسلطانه مباشرة . أما الخليفة العباسي فإنه كان ينتظر بفروغ صبر الغاء خلافة الفاطميين أعداء بيته ، والخطبة له في أرض مصر وما يتبعها من أملاك ، حتى انه كتب في ذلك لنور الدين .

ولما شرع صلاح الدين في الغائها ، اضططر الى التمهّل الى الرغم من الحاح نور الدين وعتاب الخليفة العباسي ، لأنه لما اختبر وقع الغائها بين أعيان المصريين وجد ميلهم صريحا لهذه الخلافة العلوية ، ووجد أنه لو قام به سريعا لقامت ضده فتنة لا تتدارك نتائجها . ويجرنا هذا الى أن نتكلم عن مذهب المصريين حينما جاء صلاح الدين لمصر ، فنعرف أن المصريين منذ عهد مبكر في عهد الأمويين تحول كثير منهم من النصرانية الى الاسلام ، بحيث أن عامل عمر بن عبد العزيز على مصر كتب الى خليفته يقول : « ان أهل الذمة أسرعوا الى الاسلام » ، كما نجد في كتب المؤلفين أسماء أئمة المجتهدين من المصريين ، وبينهم فقهاء من الطبقة الأولى من التابعين ، وما جاءت الدولة الطولونية الا حتى كانت الغالبية العظمى منهم قد تحولت الى الاسلام . وقد كان اسلام المصريين في أول الأمر على مذهب الخلافة المسيطرة آنذاك ، وهو المذهب السني ، الذي يتمثل في اعتناقهم فروعه المختلفة . وكان أول مذاهب السنة التي انتشرت بين المصريين ، مذهب مالك بن أنس (ت ١٧٩ / ٧٩٥) ، وذلك بسبب توافر أصحابه الذين جاءوا لمصر ، ولدينا أسماء فقهاء مالكية كثيرون من بين المصريين . فلما جاء مصر محمد بن ادريس الشافعي

(ت ٢٠٤ / ٨١٩) ، واستقر بالفسطاط ودفن بها بالقرب من المقطم ، خص بعلمه أهل مصر ، ثم تفرق مذهبه من مصر في سائر البلدان ، وأصبحت غالبية مسلمي مصر من أتباعه ، بحيث طغى في انتشاره على مذهب مالك .

ومع انتشار المذاهب السنية في مصر ، فان ذلك لم يمنع المصريين منذ وقت مبكر من حب آل علي والتشجيع لهم ، حتى اضطرت الخلافة العباسية عدوة العلويين الى اخراج آل أبي طالب من مصر الى العراق ، واستتر من كان على رأى الشيعة من المصريين . فلما قامت الخلافة الفاطمية بالمغرب ، عملت على نشر مذهبها الشيعي بين المصريين عن طريق دعائها ، ونجحت في تحويل بعضهم ، فكان لها بمصر شيعة يكتابون الخلفاء بالمغرب ، فكتبوا الى المعز لدين الله - وهو الخليفة الذي فتح مصر - يقولون : « اذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز الدنيا كلها » ، وهم يعنون بالحجر الأسود كافورا أمير مصر من قبل العباسيين ، بما يرجح أن فتح الفاطميين لمصر ، كان بناء على دعوة من المصريين . وبعد دخول الفاطميين مصر ، كتبوا لأهلها أمانا أعلنوا فيه احترامهم للمذهب السني ، الذي كان مذهب غالبية المصريين في ذلك الوقت ، بحكم أن الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة في رأيهم . وفي أيام الخليفة الفاطمي الثاني في مصر العزيز بالله ، بدأت الخلافة الفاطمية وكانت قد استقرت أحوالها ، في دعوة المصريين دون اجبار الى مذهبها ، عن طريق شرح نصوص التشريع الشيعي ، فعينت لهذا الغرض خمسة وثلاثين فقيها بالجامع الأزهر ، الذي بدى في بنائه منذ أيام المعز ، كما كان وزراء الخلافة وقضاتها يقرأون شروحا من تأليفهم عن التشريع الشيعي . وكان المصريون يقبلون على سماع هذه الشروح الفقهية حتى انه قتل من شدة التزاحم على سماعها في احدى المرات أحد عشر رجلا .

وفى أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى الثالث بمصر ، وضع نظام دقيق لتحويل المصريين ، وبخاصة الموظفين منهم ، الى المذهب الرسمى ، اذ كان لا بد لكى يبقوا فى وظائفهم أن يكون لهم على الأقل ميول شيعية . فعين الحاكم للدعوة الفاطمية - أو ما عرف أيضا بالدعوة الهادية ، لأنها تدعو الى المذهب الصحيح - من يشرف عليها فى القاهرة والأقاليم ، فلأول مرة ظهرت بين وظائف الخلافة الكبرى وظيفة داعى الدعوة ، التى تأتى فى المرتبة بعد قاضى القضاة ، حيث كان له مجلس يتكون من اثنى عشر نقيبا - هم رؤساء الدعوة - ودعاة يتبعونهم وينتشرون فى جميع أجزاء مصر وبلاد الخلافة التابعة لها كنواب القضاء حتى ان أقاليم الدعوة عرفت بالجزائر لانتشارها . وقد ترتب على تنظيم الدعوة أنها لم تعد شرعا للتشريع فحسب ، وهو ما عرف « بالظاهر » ، وانما اشتملت أيضا على ما عرف بالدعوة (الباطنية) ، أى تأويل نصوص القرآن والحديث ، بمعرفة ما وراء معانى الألفاظ ، بقصد الوصول الى مبادئ الدين الصحيحة ، وتوطيد حق الامامة الفاطمية بطريقة ايمانية غير قابلة للنقاش ، بحيث تحولت نصوص القرآن والحديث الى أدوات طيعة ، لتأييد امامتهم ومذهبهم . وبعد أن كانت الدعوة دعوة واحدة علنية ، أصبحت درجات عددها سبع أو تسع درجات ، دعوة بعد دعوة ، ودخلتها آراء فلسفية وجدلية ، كما أن المستجيب لم يعد مجرد مستمع ، وانما كان عليه أن يحلف يمينا للمذهب « العهد » ، مؤداه ستر كل ما سمعه ، وألا يقدم مساعدة لأعداء الفاطميين ، كانت هذه الدعوة الباطنية تدرس على الخصوص فى دار العلم أو الحكمة ، التى اضيفت للجامع الأزهر ، وفتحت أبوابها فى عهد الحاكم سنة ٣٩٥ / ١٠٠٥ . وكانت نتيجة هذا التنظيم المعقد للدعوة الفاطمية ، أنه فى عهد المستنصر ، الخامس من الخلفاء فى مصر ، أصبح المذهب السنى غريبا ، وانتشر المذهب الفاطمى على نطاق واسع بين المصريين .

لذلك عمل صلاح الدين على محاربة الدعوة الفاطمية ، وساعده على ذلك أنه كان له الاشراف على القضاء والدعوة معا ، اذ كان من ألقابه كوزير تفويض للعاقد : كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، مما أطلق يده . حقا ان الخليفة العاضد منذ أيام وزيره شيركوه وهو غير فاطمى ، كان يتكفل بتولية القضاة والدعاة كما ذكرنا ، ولكن يبدو أنه فى وزارة صلاح الدين ، لم يعد له حتى هذه السلطة الدينية : فعزل صلاح الدين قضاة مصر الشيعية وقطع أرزاقهم ، وشرذ الدعوة ، وألقى مجالس دعوتهم ، وأزال أصول المذهب الشيعى ، مثل الأذان بحى على خير العمل بدلا من الأذان بحى على الفلاح ، والجهر بالبسملة فى الصلاة ، ومنع صلاة الضحى والتراويح ، والصيام على أساس أن شهر رمضان ثلاثين يوما ، بل حذف من النقش الدينى على العملة المتداولة بين الناس صيغة العقيدة الشيعية : « على ولى الله » . ثم أخذ فى ابراز ان نسب الفاطميين غير صحيح ، وأنهم من نسل المجوس أو اليهود ، وان زعموا أنهم علويون ، حتى لا ينسبوا الى بيت النبى . كذلك منع صلاة الجمع بالجامع الأزهر وجامع الحاكم ، حيث استمر هذا المنع مائة عام الى ان جاء الماليك ليعيدها الى الجامعين ، كما أنه كان يخطب لنور الدين بعد العاضد فى الجوامع الأخرى .

وفى نفس الوقت جعل صلاح الدين همه عودة مذهبي السنة : الشافعى ومالك الى انتشارهما الأول قبل مجىء الفاطميين . ويجب أن نقرر أن الفاطميين على الرغم من حرصهم على نشر مذهبهم ، فانهم لم يقضوا على شعائر المذاهب المخالفة ، حيث صرح القلقشندى بقوله : ان مذهبي مالك والشافعى ، كانا موجودين فى عهد الفاطميين ظاهري الشعار . وليقوم بذلك أخذ فى بناء مدارس لتدريس المذهبين السنيين ، ليس فقط فى القاهرة ، وانما أيضا فى جميع أنحاء القطر ، مع أنه لم يكن المذاهب غير الشيعية شىء من

المدارس ، مقتديا بذلك بنور الدين ، الذى أكثر من بناء المدارس بالشام . ويبدو أن صلاح الدين وشيركوه ، كانا يريان المذهب الشافعى ، ربما لأنهما كانا من معتنقيه ، أو تقربا للمصريين ، الذين كانت غالبيتهم من أتباعه قبل مجيء الفاطميين ، أو لأن الفاطميين أنفسهم كانوا على العكس يراعون مذهب مالك دون الشافعى ، ومن سألهم الحكم به أجابوه . وقد رأينا شيركوه يزور ضريح الشافعى يوم دبر مقتل شاور ، وبنى صلاح الدين حول الضريح مدرسة ، يخيل لمن يطوف عليها انها بلد مستقل ، وأنه جعل الحكم فى اقليم مصر كله لقضاة الشافعية وحدهم . ويذكر المقرئى نتيجة لذلك ، أن تظاهر الناس فى مصر بمذهبى مالك والشافعى واختفى مذهب الشيعة .

ثم خطا خطوة أخرى ترمى الى اضعاف نفوذ حاشية القصر ، وبخاصة انه الوزير المتحكم الذى لا يرد أمره فى شيء . فقد كان نفوذها كبيرا فى وقت العاضد ، تتدخل فى شئون السياسة ، بحيث تمكنت من قتل الوزير المستبد طلائع بن رزيق كما ذكرنا ، ولا غرو فهى فرقة كبيرة ، لم تعرف مصر لها مثيلا فى قصر اسلامى من قبل ، اذ يقول المقرئى : ان عددها عند سقوط دولة الفاطميين ، بلغ ثمانية عشر ألفا . فكانت تتكون من موظفين من كل نوع ولون ودين يقومون بأعمال القصر المختلفة ، وان تميزت بينهم طبقة من العبيد البيض والسود على السواء أغلبها من أصل أجنبى من الصقالبة الأوروبيين أو السودانيين ، خصيان وغير خصيان ، يعرفون «بالأستاذين» جمع أستاذ ، وهى كلمة من أصل فارسى ، تعنى عبيد القصر الذين يقومون بأعماله المختلفة . وقد كان يشرف على هذا الجهاز الضخم فى القصر رؤساء لهم يعرفون «بالأستاذين» المحنكين ، لتمييزهم عن غيرهم بزي الحنك ، وهو أن يمر طرف العمامة تحت الحنك ، ليصعد من الجهة المقابلة ، ويلتف

من جديد حول الرأس ، فكان هؤلاء يكونون «الخاصة» للخليفة ، ولهم نفوذ كبير اذ كان الواحد منهم له حق التلقب بلقب الأمير ، كما ان الخليفة والوزير يشتركان معهم - أحيانا - فى لبس زيهم المميز ، مما يدل على خطورة مناصبهم .

فنجده صلاح الدين يضابق أهل القصر ، يستبد بهم استبدادا شديدا ، ويعمل على اغتيال كبيرهم مؤتمن الخلافة جوهر ، وكان خصيا أسود من الأستاذين المحنكين ، بحجة أنه تأمر على قتله ، ومالاً الأجنبى بأن استدعى الفرنجة ، كما فعل شاور . ومما يدل على نجاح صلاح الدين فى توطيد سيطرته على قصر الخليفة الفاطمى بعد قتله مؤتمن الخلافة هذا ، قول المقرئى : ان جوهر هو فاتح مصر ، وخراب الفاطميين بسبب جوهر . وبعده عين صلاح الدين للقصر الفاطمى خصيا أبيض اللون من أتباعه ، لعله تركى أو يونانى ، كان شيركوه قد اعتقه ، اسمه قراقوش - بمعنى الطائر الأسود - ولقبه بهاء الدين ، بأن جعله زماما للقصر ، أى مشرفا على شئونه . فأشرف قراقوش على كل أمور القصر الفاطمى ، بحيث أصبح لا يجرى فيه صغيرة ولا كبيرة الا بأمر صلاح الدين . يضاف الى ذلك أن صلاح الدين صادر منخصصات العاضد ، من المال والخيول والرقيق ، ولم يبق عنده غير فرس واحد طلبه منه . كذلك منع رسوم الخلافة - وهى حفلاتها الرسمية فى الأعياد وغيرها - من ركوب فى المواكب ، وجلس عام فى القصر الكبير ، واعتقل الخليفة ولم يعد يظهره للناس البتة ، حتى يبين لهم ما يريد من ازالة دولته ويعودهم على نسيانه ، واعتقل أقرباءه . بل جعل القاهرة عاصمة الفاطميين مبتذلة ، وحط من قيمتها ، كما ألغى من نقش العملة كلمة المعزية التى كانت تدل على أن باني القاهرة الخليفة المعز لدين الله الفاطمى . ولما جاء أيوب أبو صلاح الدين فى سنة ١١٦٩/٥٦٥ ، أخرج العاضد للقائه ، وهذا يدل على مدى امتهان حق هذا الخليفة . وقد حدث

مثل ذلك ، حينما كان يسيطر ملوك البويهيين الشيعة على الخليفة العباسي السني الطائع ، وأجبروه على استقبال رسول الخليفة العزيز . ويقول عمارة اليمنى ، ان صلاح الدين فعل بالفاطميين ، أكثر مما يفعله الفرنجة .

ثم اتخذ صلاح الدين خطوات أخرى حاسمة للاجهاز على قوة الخلافة الحربية ، التى كانت قد ضعفت بدليل تسابق الترك والصليبيين فى الاستيلاء على مصر . فقد كان الجند الفاطميون فى أواخر أيامهم يتكونون من عناصر مختلفة كمعظم الجند الاسلامية فى عصره ، الا أنه كان يستمد قوته من عنصرين أساسيين ، هما : المصريون الذين كانوا قد كثروا فيه بسبب أن بلادهم كانت مهددة من جانب الصليبيين ، فاضطروا الى القيام بالدفاع عنها ، بحيث أنهم لم يصبحوا فقط عماد جنده ، ولكن أيضا من قواده ، فنقرأ غالبا فى كتب المؤرخين عبارة : « الأمراء المصريين » ، أما العنصر الآخر : فهم السودانيون ومعظمهم من النوبيين ، الذين كثروا فى عهد الخليفة المستنصر ، بسبب أن أمه نوبية ، وعرفوا لكثرتهم بعبيد الشراء . وعلى العكس ، لم نعد نسمع فى تكوين الجند الفاطميين عن العناصر السابقة من المغاربة البربر ، والمشاركة الترك والديلم ، فالأولى قد أبعدت من صفوفه منذ ثورة أبى ركة المغربى فى عصر الحاكم ، وانفصال المغرب عن طاعة الفاطميين فى عهد المستنصر ، أما المشاركة وهم الترك والديلم فانهم أبعدوا منذ مجيء الترك السلاجقة الشام ، ولم يعد للفاطميين فيهم ثقة .

وقد بدأ صلاح الدين بطائفة السودانيين ، الذين كانوا يكونون غالبية الجيش الفاطمى فى آخر أيامه ولا يعترفون الا بالخلافة الفاطمية ، وبلغ عددهم أيام العاضد خمسين ألفا ، وكانوا يقيمون فى حارات كثيرة بظاهر القاهرة ، حيث عرفت لهم طوائف قوية ،

مثل : الفرحية والريحانية والميمونية والحسينية والمنصورية . وكان للسودانيين قوة وشوكة فى وقت العاضد ، ويقول المقرئى أنهم سيطروا على الجيش والدولة والقصر ، واذا ثاروا على وزير قتلوه . لذلك تحرشوا بصلاح الدين بعد قتل مؤتمن الخلافة جوهر - كبير رجال القصر - وثورة حرس القصر وأغلبهم من السود - مثلهم ، فأرسل صلاح الدين نحوهم أخاه الأكبر توران شاه - بمعنى ملك الشرق - على رأس الترك لقتالهم . ومع أن السود كادوا يتغلبون على الترك ، الا أنهم انهزموا لما أجبر صلاح الدين الخليفة على تخذيلهم ، وحرق حاراتهم بما فيها مساكنهم ونساؤهم وصبيانهم ، فانهزموا الى الصعيد ، وعرفت الواقعة بواقعة السود - السودانيين . أو العبيد - وذلك فى سنة ١١٦٨/٥٦٤ .

وفوق ذلك ، استبد صلاح الدين بقواد الجيش الفاطمى « الأمراء المصريين » ، مع أنه أول الأمر بذل لهم المال فاحبوه وأطاعوه ، وكان عمه قبله لم يغير على أحد شيئا ، فعمل على انقاص اقطاعهم . ثم قبض عليهم فى ليلة واحدة ، وأنزل أصحابه فى دورهم ، وفرق اقطاعاتهم عليهم . ويقول المقرئى ، منذ كانت أيام صلاح الدين الى يومنا ، فان أراضى مصر كلها كانت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده ، اذ كان معظم من جاء معه من التركمان - وهم الترك - والكرد . وكان الرجل منهم اذا استحسن دارا أخرج سكانها ونزل فيها . بحيث أن معظم أهل القاهرة كانوا يكون من الاستبداد .

ولما تم له اضعاف جانب الخلافة الفاطمية وهدم دعوتها ، لم يتردد فى الغائثا من مصر فى أول جمعة من محرم سنة ٥٦٧ / ١٠ سبتمبر ١١٧١ ، وارجاع الخطبة للخليفة العباسي السني المستنصر بأمر الله ، الذى تولى بعد أبيه المستنجد بالله المتوفى سنة ٥٦٦ / ١١٧٠ ، وذلك بعد أن كانت الخطبة العباسية قطعت من مصر منذ

مائتي سنة - وقد قيل في ظروف هذا الالغاء عدة روايات منها :
ان صلاح الدين لما خطب لبنى العباس ، اغتم الخليفة العاضد ومات ،
أو أنه كان في يده خاتم فيه سم فمضه ومات ، كما قيل ان الطبيب
الذي كان يعالجه لما رأى رغبة صلاح الدين في عزله ، امتنع عن
مداواته ، أو أن توران شاه أخو صلاح الدين ، هو الذي قتله بنفسه
على حسب مراجع الفرنجة . ويلاحظ المؤرخون أن العاضد في اللغة
هو القاطع ، وفعلًا قطعت بالعاضد خلافة الفاطميين ، كما أن وفاته
كانت في عاشوراء يوم ذكرى مقتل الحسين ، وهو يوم نوح وبكاء
عند الشيعة .

وبعد هذا الالغاء استولى صلاح الدين على الكنوز التي كان
خلفاء الفاطميين قد كدسوها منذ مجيئهم مصر في خزائن وحواصل ،
عبارة عن قاعات كبيرة بداخل قصورهم وخارجها ، وتتمثل فيما
جمعه منها من جميع بقاع الدنيا ، وفيما صنعوه في مصر ، مما لم
يكن له مثيل من قبل في أي بلاط آخر . فكانت كثيرة تتكون من
شارات الخلافة « الآلات الملوكية » ، مثل : القضيبي الذي كان يحمله
الخليفة الفاطمي في المواكب على طريقة الفراعنة ، وهو عود طوله
شبر ونصف مرصع بالدر والجوهر وملبس بالذهب ، واليتمة التي
كانت توضع على تاج الخليفة « العمامة » في الأعياد الرسمية ، وهي
جوهرة لا تقدر بثمن ، وحولها جواهر أخرى من ياقوت أحمر ،
تحيط بها في شكل حافر ، وغير ذلك من التحف والعملية والمصاغ
والجوهر والنحاس والملبوس والأثاث والقماش والسلاح والأعلام ،
كما وجدت في الخزائن عمامة الخليفة العباسي القائم حيث كانت
أرسلت الى المستنصر لما طرده البساسيري من بغداد . قد استمر
بيع هذه الكنوز ، التي قدر فراقوش بنفسه أثمانها ، أكثر من عشر
سنين ، كما أهدي صلاح الدين بعضها لمن حوله وبخاصة لنور الدين .

أما الكتب بالقصر الفاطمي الكبير ، وكانت كثيرة موضوعة في أربعين
حجرة فيه ، ولم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم منها ،
فان صلاح الدين كان همه انتخلص منها لاحتوائها على كتب الشيعة
وعقائدهم ، فحدد لبيعها في كل أسبوع يومين ، وأعطى كثيرا منها
للقاضي الفاضل ، الذي كان قد عمل في الدواوين الفاطمية أيام
رزيك بن طلائع وشاور ، ولما جاء شيركوه عينه رئيسا لديوان الانشاء
بدلا من رئيسها السابق يوسف بن الخلال ، وأصبح ذراع صلاح الدين
الأيمن ووزيره فيما بعد . أما الأملاك والأراضي ، فانها وزعت على
أقرباء صلاح الدين ، وأفراد أسرته الكثيرين ، الذين استدعاهم من
الشام ، فأعطى : أيوبا اقطاع الفيوم وتوران شاه قوص وأسوان
وعيناب ، وذلك بعد هزيمته للسودان . وقد أغلق القصور أو
ملكها أمراءه ، ومنح أباه أحداها ، بل كان الرجل من أتباعه اذا
استحسن دارا أخرج أهلها ونزل فيها كما ذكرنا .

أما سكان القصور الفاطمية ، فان قراقوش أخرج منهم على حسب
قول المقرئ عشرين ألف شريف وشريفة - أي من العلويين - ومن
الخدم ثمانية آلاف بين خادم وأمه مولدة أو أكثر ، فأعتق صلاح الدين
بعضهم وأهدى أو باع البعض الآخر . أما أولاد العاضد وأقرباؤه -
وكانوا أكثر من مائة - فانهم اعتقلوا ، وفرق الرجال من النساء
لثلاثين ناسلوا ، واستمروا معتقلين طول زمن الدولة الأيوبية . وهجى
المماليك . وقد كانت تصرفات قراقوش الجائرة نحو سكان القصور
الفاطمية سببا في سخرية المؤلفين منه ، حتى ان أحدهم من المصريين
ألف كتابا عنه سماه الفاشوش - أي الغباوة - في أحكام قراقوش ،
ذكر فيه أشياء يبعد وقوعها منه ، والظاهر أنها موضوعة للنيل منه ،
ولعل القراقوز تحريف لاسمه ، وهو اللعبة التي بقيت الى وقتنا
لتضحك الناس في مصر ، بل وفي العالم أجمع .

وقد ترتب على انتهاء صلاح الدين للخلافة الفاطمية رنة فرح كبيرة بين السنيين ، الذين وصفوها بدولة الرافضة ، أى التى رفضت الدين الاسلامى وخرجت عليه . وقد كانت الخلافة العباسية السنية تتطلع الى أن يزيل نور الدين الدولة الفاطمية ، حتى ان الخليفة المقتضى لأمر الله بعث بتقليدها اليه حينما قتل الظافر الفاطمى بمصر ، وان كان سقوطها على يد صلاح الدين تم فى أيام حفيده المستضى بأمر الله . وقد بعث صلاح الدين ببشارة الالغاء الى نور الدين ، فبعث هذا الأخير رسولا بكتاب تهنئة خاص للمستضى ، ومعه منشور الالغاء الذى قرئ فى سائر المدن والقرى الى أن وصل الى بغداد ، كما أرسل صلاح الدين للمستضى بكتاب من خط القاضى الفاضل وانشائه . فزينت بغداد ، وغلقت الأسواق ، وأقيمت الاحتفالات ، لاستقبال رسول نور الدين ، وقرعة المنشور . وقد أسرع الخليفة المستضى بإرسال الخلع من ملابس وغيرها لنور الدين ، ومثلها أقل فى العدد والقيمة لصلاح الدين لأنه نائب لنور الدين ، وكلها سوداء شعار العباسيين ، بدلا من البياض شعار الفاطميين .

وفى مصر احتفل صلاح الدين رسميا بوصول خلعة الخليفة العباسى اليه ، فلبسها وشق بها حارات القاهرة . وفى صلاة الجمعة التالية للالغاء نصبت على المنابر فى مصر واقاهرة الأعلام السوداء ، ولبس الخطباء ثيابا سوداء أرسل بها من بغداد ، وأجبر على الحضور رجال الدولة وأعيان المصريين ، وهدد من تأخر منهم بالعقاب ، فحضر من لا يريد الحضور ، وأصبح يخطب لصلاح الدين على منابر مصر ، بعد الخليفة العباسى ونور الدين . كذلك قررت العملة بأسم المستضى بأمر الله ، وبأسم الملك العادل نور الدين ، فنقش اسم كل منهما فى وجهه .

أما حقيقة موقف المصريين من انتهاء الخلافة الفاطمية ، فقد كان

له وقع أليم وأسى ، بحيث أن ابن تغرى بردى يقول : ان نفوس المصريين كادت تزهر حزنا لانتهاى دولة الفاطميين . ولا ريب ، فهذه الخلافة الفاطمية ، كان قد أحبها المصريون ، لأنها جعلت من مصر دولة مستقلة استقلالاً تاماً ، لا يحكمها ولاية معينون من بغداد أو دمشق أو المدينة كما كان الحال من قبل ، ولكن خلفاء من بيت النبى منافسون لخلفاء العباسيين فى العراق ، فنبهت بذلك الى مركز مصر فى دار الاسلام ، وهو المركز المرموق الذى لا تزال قابضة عليه الى الآن . ولم ينس المصريون أن الفاطميين جاءوا للجهاد ، وأنهم قاموا بدور هام فى الدفاع عن الاسلام بصد البيزنطيين اليونان ، الذين كانوا بدأوا الحروب الصليبية ووصلوا الى قرب القدس وحدود مصر ، قبل مجئ الفرنجة بالشام . كذلك كانت الخلافة الفاطمية تعتمد فى دواوينها على المصريين ، سواء أكانوا من المسلمين أم القبط ، الذين تولوا أعلى مناصبها بما فيها الوزارة . وأخيرا ، فإن أيام الخلافة الفاطمية فى مصر ، كانت اعيادا متواصلة مما لم يعرف له مثيل من قبل ، ليست فقط للمسلمين من أهلها وانما أيضا للقبط ، بحيث أنها فى أعياد القبط كانت تطلق المأكولات والأموال والملابس للموظفين القبط والمسلمين ليكون الابتهاج عاما ، وأنها كانت تقوم بسك دنانير خاصة بها ، كما كانت تفعل فى أعياد المسلمين . لذلك اعتبرها المصريون دولتهم ، حتى ان معظم المؤرخين أجمعوا على تسميتها : « بدولة المصريين » .

ومن ناحية أخرى . كان سقوط الخلافة الفاطمية يعنى عندهم أن مركز بلادهم قد ضعف بعودتها ولاية تابعة لخلافة العباسيين ، وأنهم خضعوا لجنس أجنبى عنهم وهو الغز (أى الترك) ، بحيث أن ابن جبير الرحالة الذى زار مصر عدة مرات أيام صلاح الدين ، لاحظ أنه بانتهاء خلافة الفاطميين تملك الغز ديار مصر ، كما ألف ابن الجوزى المؤرخ العراقى المتعصب (ت ٥٩٧/١٢٠٠) ، كتابا

سماه : « النصر على مصر » . وكان سقوطها يعنى أيضا الخضوع لصالح الدين الكردي المستبد ، انذى استعبد فى وزارته رجال مصر ، واخرجهم من الوظائف والجيش وانزل رجاله فى بيوتهم ، وهم أيضا باخراج القبط من الدواوين أو من البلاد ، لولا خوفه من توقف دولاب الأعمال . كذلك قدروا أن عصر الرخاء قد زال بزوال الفاطميين ، لأن أموال مصر وخيراتها تخرج للترك الغرباء فى مصر والشام ، وأحسوا باختفاء العملة الذهبية والفضية من التداول منذ مجيء صلاح الدين ، وظهرت بدلها عملة رديئة هى الفلوس ، وهى من نحاس أو نحاس مخلوط بفضة ، فكان العثور على دينار ذهب « أحمر » أشبه ببشارة من الجنة ، مع أن الفلوس كانت تعتبر زمن الفاطميين عملة غير قانونية .

لذلك نجد المصريين يقومون ضد صلاح الدين بثورات ، بقصد التخلص من استبداده واحتلال الترك لبلادهم وأخذهم خيراتها ، وإعادة الخلافة العلوية المصرية . ويحس صلاح الدين بعداء المصريين له ورغبتهم فى التخلص منه ، فيذكر فى مراسلاته لنور الدين ، أن أهل مصر وجندها أعداء . وقد قاموا بثورات عارمة بجميع طبقاتهم ودياناتهم ، استمرت عدة سنوات وشملت معظم مدن مصر من الاسكندرية الى حدود النوبة . ونحن لا نقبل ما روجه مؤرخو السنة من أن ثورات المصريين ، كانت بالاتفاق مع الصليبيين رغبة فى تشويه أهدافها . حقا ان الصليبيين جاءوا لمهاجمة مصر فى الوقت الذى قامت فيه هذه الثورات ، لأنهم كانوا يتربصون بها منذ أن استقروا بالشام ، وينتھزون فرصة اضطراب أحوالها للحصول على مغانم . ففى رأينا أن ثورات المصريين ضد صلاح الدين نبعت من باعث وطنى ضد الاحتلال التركى ، ومن الكبرياء لاستبداده بهم ، وخصوصا قد رأيناهم من قبل يثورون بشاور لاستعانتهم بالأجنبي سواء أكان من الصليبيين أم الترك . وبذلك تعتبر ثورات المصريين

دليلا جديدا يناقض فرية المؤرخ السيوطى ، فى أن أهل مصر كانوا عبيدا لمن غلب . ولعل أكبر المحاولات لاعادة الخلافة الفاطمية ، هى التى اشترك فيها جمع كبير من المصريين بما فيهم القاضى والداعى والكاتب والأمير وأستاذ القصر ، والعوام من الشعب ، وأهل ثلاث ديانات من المسلمين والنصارى واليهود ، وحتى السودانيين ، وذلك فى سنة ١١٧٣/٥٦٩ . وكان على رأس هذه المؤامرة شخصيات من كبار رجال الدولة السابقة مثل ابن عبد القوى المعروف بالجليس ، الذى كان أفراد أسرته يتولون رئاسة الدعوة الفاطمية أبا عن جد ، والعوريس المشرف على مالية الفاطميين «متولى ديوان النظر» ، وابن كامل القاضى ، والقشة أحد أمراء المصريين (أى قوادهم) ، والشاعر الفقيه عمارة اليمنى ، الذى كان من أنصار الفاطميين ، وجاء مصر فى عهد الفائز ، واستمر يمدحهم ويرثيهم حتى بعد زوال خلافتهم ، والواعظ على بن نجا ، وكانوا قد اختلفوا على أن يكون خليفتهم رجل كبير السن من بنى عم العاضد أى من نسل جبريل أو من أولاده ، حيث يذكر المقرئى أن العاضد ترك أحد عشر ولدا ، ثم اتفقوا على تولية ابن العاضد الأكبر ولقبوه بالحامد لله ، ووزعوا فيما بينهم المناصب . ويذكر المؤرخون - وأكثرهم من السنة أنصار صلاح الدين - أنهم دبوا هذه المؤامرة بعد مراسلات مع الفرنجة فى صقلية والشام « الساحل » ، وحتى مع صاحب الدعوة الاسماعيلية فى شمال الشام رشيد الدين سنان بن سليمان ، وكان يلقب بشيخ الجبل ، وكان أبوه من كبار دعاة الحسن بن الصباح ببلاد الألمات بفارس - بمعنى عش النسر - وجاء الى الشام فى أيام نور الدين ، ودعا للشيعة الاسماعيلية وأصبح كبيرها ، واستولى على قلاع كثيرة من السلاجقة ، وكان تحت يده الفداوية وهم المخلصون من أتباعه ، الذين يقتلون بأشارة منه ، فيأمر احدثهم بالتردى من شاهقة جبل

فيتردى ، ويستعجل فى مرضاته الردى كما يقول ابن حجر الرحالة . وأصبحت بلاده تعرف ببلاد الاسماعيلية ، فكتبوا اليه ليرسل احد رجاله لتدبير مكيذة لاغتيال صلاح الدين ، وقالوا له : « ان الدعوة واحدة ، والكلمة جامعة ، وأنه ما بين أهلها خلاف الا فيما لا يفترق به كلمة ، ولا يجب به قعود عن نصرة » . وأخذ عمارة اليمنى أحد المشتركين فى المؤامرة فى مدح توران شاه ، واغراه بالذهاب الى اليمن - وهو الأخ الأكبر لصلاح الدين - بغية ابعاده لانه عرف بقوة شكيمة ، كما انهم استطاعوا استمالة بعض القواد الترك الذين كانوا مع صلاح الدين .

ولكن خبر المؤامرة وصل الى علم صلاح الدين على يد احد أعوانه وهو ابن نجا ، الذى دسه بينهم ، فاحتاط على ولد العاضد وسجنه ، وأحضر المتآمرين واعترفوا له ، وأجبر فقهاء مصر على الافتاء بقتلهم ، فشنقهم وصلبهم فى ميدان بين القصرين ، وهو من أكبر الميادين بالقاهرة ، يقع بين القصر الكبير الشرقى والقصر الصغير الغربى ، اذ كان يتسع لعشرة آلاف جندي . كذلك قبض على كل من له يد فى المؤامرة من بعيد أو قريب ، فشنق كثيرا من رجال العاشية وأجناد الفاطميين السابقين ، وقتل بعض قواده « أمرائه » ، الذين استطاع المصريون استمالتهم ، ولم يمكن لورثتهم فى شىء . ثم تتبع أنصار الخلافة الفاطمية بالقتل والسجن ، حتى انه قبض أيضا على من ثار من دعائهم بالاسكندرية ، وجمع كثيرا من السودانيين وكواهم بالنار فى صدورهم ووجوهم . وعلاوة على ذلك أمر كافة الأجناد المصرية والسودانية وحاشية القصر بالرحيل الى أقصى الصعيد بقصد نفيهم ، بحيث لم يبق من العساكر الفاطمية بالقاهرة أحد ، كما قطع أرزاق الموظفين وصادر أملاكهم ، ومنهم القاضى والداعى والموظف والأمير ، فأصبحت الدولة كلها بين يديه . وبنى الكرد والترك من جنده .

هذه الثورة التى أطفئت فى العاصمة ، ما لبثت أن اشتعلت من جديد فى الصعيد ، وهدفها أيضا إعادة الخلافة الفاطمية ، وذلك فى سنة ١١٧٤/٥٧٠ ونقصد بها الثورة التى قام بها شخص يلقب بكنز الدولة أو الكنز ، وهو مصرى من أهل الصعيد ، كان من قواد الفاطميين « مقدما » ، وواليا على أسوان ، ولا سيما أنه كان فى هذا الثغر حامية من العسكر مستعدة بالأسلحة ، اذ كان من عادة الفاطميين انزال العساكر فى مراكز الحدود « الثغور » . وأختلفت بعض المراجع فى أصله ، فقيل ان كنز الدولة من السودان ، الا أن المقريزى يقطع بصحة مصريته ، حينما ينقل اليها أنه خرج لقتال عبيد النوبة ، الذين هاجموا القرى المتاخمة لثغر أسوان ، بالاشتراك مع عسكر صلاح الدين ، فقاتلهم وهزمهم سنة ١١٧٢/٥٦٨ . كما أرسل صلاح الدين بعدها جيشا بقيادة أخيه توران شاه الى بلاد النوبة لتأديب أهلها ، وان لم يستطع ان يقوم بشىء هام ، اذ كانت النوبة لا تزال دولة مسيحية مستقلة لم يفتحها المسلمون . وقد اشترك معه فى هذه الثورة عباس بن شادى والى قوص ، وهى المدينة الكبيرة الواقعة شرقى النيل وسط الصعيد واعتبرت قصبته ، ومحط التجارة والحجاج ، بسبب أن الصليبيين كانوا يسيطرون فى الشام . وقد جمعا حولهما عددا كبيرا لم نسمع بمثله من قبل ، بلغ مائة ألف ، من أهل الصعيد الأقوياء ، والجنود الكثيرين من المصريين والسودانيين ، الذين كان صلاح الدين قد نفاهم الى الصعيد . وقد قدر صلاح الدين خطورة ثورة الصعيد عليه ، حتى أنه فكر فى الذهاب بنفسه لخمادها ، ولكن خوفه من تجدد الثورات بالقاهرة ، جعله يرسل أخاه العادل أبا بكر ، الذى استطاع أن يهزمهم ويقتل عباسا وكنزا وثمانين ألفا من المصريين ، كما نهب بلاد الصعيد عقابا لها ، وأخذ أسرى كثيرين من أهلها ، صلب منهم ثلاثة آلاف ، مما دعا الى فرار عدد كبير من المصريين الى بلاد النوبة .

ولكن عادت الثورات الى الصعيد حينما اندلعت من جديد بمدينة ققط وسط الصعيد قرب قوص سنة ١١٧٦/٥٧٢ ، اذ كانت هذه المدينة منذ أيام على بن أبى طالب وقفا للعلويين . فقد أظهر فيها أحد الدعاة السابقين من بنى عبد القوى الذى استطاع أن يجمع حوله عددا كبيرا من أهلها بقصد إعادة الخلافة الفاطمية . فأرسل صلاح الدين نحوه جيشا بقيادة أخيه العادل الذى قتل منهم نحو ثلاث آلاف ، وصلبهم على شجر المدينة ، ليكونوا عظة لمن تحدثه نفسه بالدعوة للفاطمين .

ولا ريب فى أن صلاح الدين بعد اخماده هذه الثورات ، أصبح ، السيد القوى المطاع فى مصر . ومع ذلك فهو لم يحقق سيطرته فيها ، لأنه استخدم القسوة المتناهية مع أهلها ، ففضى على جميع العناصر المعادية له بينهم فحسب ، ولكن لأن أغلبية المصريين قد وجدوا فى حكمه ، الذى ينوب فيه عن نور الدين ، صالح الاسلام المهدد من قبل الصليبيين ، وكانت همته متجهة الى التخلص منهم . وعلاوة على ذلك ، فان صلاح الدين سار فى حكم المصريين على سياسة رشيدة ، تختلف عن سياسة الفساد والاضطراب ، اللذين لازما خلفاء الفاطميين ووزرائهم فى أخريات أيامهم . فيكفى أن نذكر ما رددته معظم المؤرخين كمأثرة لصلاح الدين : أنه فى صفر من الشهر التالى على سقوط خلافة الفاطميين ، أسقط ضريبة المكوس البغيضة ، التى كانت قد فرضت على كل شىء ، بحيث قال المقرئى عنها : انها فرضت على كل البضائع والناس ، وأن الهواء وحده أدخل سبيله وبقي حرا . وكان الذى كرهه المصريين فيها أيضا ، هو أنها ضريبة جائرة غير شرعية ، لأنها لم تكن فرضت فى عهد الخلفاء الأوائل ، وكان بعض الأتقياء من خلفاء الفاطميين أنفسهم ، مثل الحاكم ، « عملوا » على الغائها أو على الأقل على تخفيفها . لذلك لما أمر صلاح الدين باستقاطها ، وقرأ المنشور بذلك فى الجوامع ، كان وقعها حسنا فى نفوس

المصريين ، الذين أثقلوا بالضرائب ، بسبب حربهم ضد الترك والصليبيين وسوء السياسة .

كذلك قام صلاح الدين بسياسة انشائية اصلاحية خاصة بالقاهرة ومصر ، ليتقرب من أهلها ، ولا سيما أنهم كانوا من أكثر الناس تحمسا للخلافة الفاطمية السابقة . فأقام مستشفى «مارستانا» ، بقصر من قصور القاهرة ، لعلاج المرضى من الرجال والنساء ، وضع بها أسرة فى غرف «مقاصير» ، وزودها بخزائن العقاقير ، وعين فيها من يشرف على المرضى من الجنسين ، واتخذ محابس للمجانين ، وعمر المدارس والجوامع الكثيرة لأبناء الفقراء والأيام خاصة ، كما هدم بمصر حبس المعونة ، التى وصفها المقرئى بأنها كانت أشبه بجحيم الحمراء ، وأنشأ مكانه مدرسة . ويبدو أن هذه السياسة الرشيدة ، حببت أهل القاهرة ومصر فيه ، بحيث أنه لما ثار بعض الشيعة ، أثناء غيابه خارج مصر فى محاربة الصليبيين فى سنة ١١٨٨/٥٨٤ ، نادوا بشعار العلويين فى شوارعها ، وهتفوا : « يا ل على يا ل على » ، ظنا منهم أن أهل القاهرة يلبون دعوتهم ، ويخرجون العلويين المعتقلين ، لم يهتم أهل القاهرة بهم ، فأخذوا بسهولة ، وان كان ذلك أزعج صلاح الدين جدا .

وصفوة القول أن صلاح الدين الكردي وأسرته خرجوا من حملات نور الدين على مصر بنصيب الأسد ، بحيث استحقوا قول الشاعر :

أصبح الملك بعد آل على مشرقا بالملك من آل شادى

قضاؤه على الدولة الأتابكية •

ولكن هدد ما ناله صلاح الدين من سيؤدد في مصر ، ان نور الدين كان قد كثر لآل شادي عن أنيابه ، مع أنهم كانوا السبب في امتداد ملكه من الفرات الى دمشق • ونحن لا نعرف سببا ظاهرا لتغيره المبكر عليهم ، غير أنهم - كما لاحظ المقرئ في عبارة خاطفة - كانوا قد استحوذوا على دولته بالشام ، فكان أيوب نائبه ، وشيركوه قائد جنده ، وصلاح الدين رئيس شرطته • فلعل من أسباب بعث نور الدين حملاته على مصر بقيادة شيركوه وصلاح الدين ، رغبته في التقليل من نفوذهم عليه • وقد أحس شيركوه بتغير نور الدين ، فكان شديد اللفتة على الخروج الى مصر ، بموافقة أخيه أيوب كما ذكرنا ، مع أنه الى ذلك الوقت لازم نور الدين في معظم حروبه • ولما تمكن شيركوه من اخراج الفرنجة من مصر ، واستوزر للعاقد ، كان في غاية الفرح للبقاء في مصر ، حتى انه أمر بقراءة منشور الوزارة عدة مرات • وعلى النقيض ، حنق نور الدين لتولية شيركوه الوزارة ، وزاد من حقه عليه ؛ وكأنه لم يكن يرجو فتح مصر من الفرنجة على يديه ، بحيث قال أحدهم : لقد جرى ذكر فتح مصر ، فوالله ما ابتهج به نور الدين ، وظهرت في مخايل قسماته وفلتات كلامه الكراهية لذلك ، فقد قدر خطر طموح شيركوه على نفوذه • وأكثر من ذلك

أن نور الدين توسل للخليفة الفاطمي ، فخطبه بما يتضمن اعترافه بأمامته ولقب نفسه بالعبد ، طالبا منه الاستغناء عن شيركوه ، وارساله اليه .

ولكن حقد نور الدين على آل شادى بلغ أقصاه ، لما استحوذ صلاح الدين بعد وفاة عمه على وزارة العاضد ، اذ تأكد نور الدين من طموحهم ، وأنهم يعملون لأنفسهم ، فكان كثيرا ما يقول متحسرا : « ملك ابن أيوب » . ومن ناحية أخرى قبل صلاح الدين بمعارضة شديدة من الأمراء النورية الموجودين فى مصر ، وكان أغلبهم من الذين ضمهم نور الدين الى شيركوه فى حملته الأخيرة - ربما لمراقبته - فلم يقبلوا طاعته ، وعاد بعضهم الى الشام عند نور الدين ، الذى ظهر تأفقه من أن يتولى صلاح الدين وزارة العاضد بدون أمره . وتبدو كراهية نور الدين لصلاح الدين ، فى أنه بينما كان الخليفة الفاطمي يخاطب صلاح الدين بالوزير ، كان نور الدين يخاطبه فقط بالأمير الاسفهلار أى القائد ، ولا يفرد بالخطاب ، فيكتب اليه : الأمير الاسفهلار صلاح الدين وكافة الأمراء النورية بالديار المصرية يفعلون كذا ، ويضع على رسائله عبارته المميزة - علامته - ولا يكتب اسمه تعظما عليه . ونجد نور الدين يستولى على اقطاع شيركوه بحمص من نوابه ، بحجة أن آل شادى استقروا فى مصر . وقد كان نور الدين يعبر عن خطئه بارسال حملة مصر بقيادة آل شادى ، بقوله : « ما أخطأت الا فى انفاذ أسد الدين الى مصر » .

ومع ذلك كان صلاح الدين مصمما على الاحتفاظ بما وصل اليه من سؤدد فى مصر نتيجة لمجهوده ومجهود عمه من قبل ، وأصبح همه احضار بقية أهله من الشام ، ليقيموا معه ، ولينقذهم من نعمة نور الدين . لذلك طلب منه أن يسيرهم اليه ، ولكن

نور الدين رفض فى أول الأمر ، بحجة أنه خاف أن يخالف أحد منهم عليه . وبعد ذلك عمل نور الدين على اخراجهم من بلاده ، فأرسل اليه بعض أهله عام ١١٦٨/٥٦٤ ، وعلى رأسهم أخوه الأكبر فى السن توران شاه ، حتى يوجد له منافسا من أهله ، ولأن توران شاه كان يحسد صلاح الدين ، اذ يصفه المؤرخون بأنه أسوأ بنى أيوب سيرة وأقبحهم طريقة . بيد أن توران شاه لما وصل مصر ، كان من أعظم الأسباب فى نصرة أخيه وهزيمة السودانيين ، كما أن صلاح الدين شغله عنه بارساله فى غزوات عديدة خارج مصر ، فبعث به الى النوبة فى سنة ١١٧٢/٥٦٨ ، فأغار فيها بنجاح ، وبعدها أرسله الى الحجاز واليمن عن طريق البحر الأحمر فى سنة ١٠٧٣/٥٦٩ ، فتمكن توران شاه من اعلان الخطبة للخليفة العباسى فى الحجاز ، وقتل على بن مهدي الحميرى فى سنة ١١٧٤/٥٧٠ ، الذى كان مسيطرا على اليمن لصالح الفاطميين . ولما عاد توران شاه من اليمن فى سنة ١١٧٦/٥٧٢ ، تخلص صلاح الدين منه من جديد بأن أرسله بعيدا عنه الى الاسكندرية ، حيث منحه اقطاعات وأخسرى بالصعيد ، فبقى فيها الى وقت وفاته سنة ١١٨٠/٥٧٦ ، وكان من وقت لآخر تبدو من توران شاه كلمات فى حق أخيه ، وأنه أولى بالملك منه . كذلك أحضر نور الدين أيوبا ، ولزمه بالخروج من الشام الى ولده فى مصر بحجة تحريضه على ازالة الخطبة للخلافة الفاطمية ، فكان وصول أيوب الى مصر فى سنة ١١٦٩/٥٦٥ ، من أهم العوامل فى توطيد أقدام ابنه صلاح الدين أمام القواد النورية ، اذ كان أيوب شخصية هامة فى نظرهم ، لايجلس فى مجلس نور الدين غيره ، وقد عرض صلاح الدين على أبيه الوزارة فرفض تعففا من أن يأخذ ما ناله ابنه ، وقال له : « يا بنى ما اختارك الله تعالى لهذا الأمر الا وأنت أهل له » . وكان ضمن من جاءه أيضا اخوته ، الذين

شدوا من أزره ، وهم : بوري - تاج الملوك - (ت ٥٨٩ / ١١٩٣) ،
وطفتكين - سيف الاسلام - (ت ٥٩٣ / ١١٩٦) ، وأبو بكر -
العادل - (١٢١٩ / ٦١٦) .

ويبدو أن صلاح الدين قد سرح معظم الترك في الجيش
الذي معه ، وإن أبقى على الأكراد بنى جنسه ، وربما كان ذلك
بتحريض العاضد الفاطمي الذي أرسل يشكو الجند الترك
لنور الدين ، فمدحهم نور الدين له ، لأنه كان يريد بقاءهم لمعارضة
کرد صلاح الدين . كذلك أحاط صلاح الدين نفسه بجماعة
الأسدية ، المنتسبة الى عمه أسد الدين ، وعدتهم خمسمائة
مملوك ، اذ مالوا اليه غداة وفاة عمه ، ليقف في نضاله أمام
القواد النورية ، الذين أراد بعضهم الوزارة لأنفسهم ولم يقبلوا
طاعته . فكان على رأس الأسدية بهاء الدين قراقوش ، الذي عرف
بإخلاصه لآل شادي ، وأصبح ذراع صلاح الدين الأيمن في تنفيذ
سياسته . كما أوجد صلاح الدين لنفسه جندا كثيرين ، جمعهم
من بين طبقات المماليك الراقية أو الخصيان « الطواشية » ، أو من
الجند الأحرار « الحلقة » ، فلعلهم هم الصلاحية الذين عرفوا
باسمه . وفوق ذلك استخدم العربان الساكنين في مصر من قبائل
الشعالبية والجذاميين ، وهم الذين كانوا يعملون منذ هجرتهم الى
مصر ، لمن يدفع لهم من حكاهما . ولكي يستميل أمراء جيشه -
وكان أغلبهم من الأمراء النورية - أغدق عليهم الاقطاعات التي
كانت بيد أمراء المصريين ، وأنزلهم في البيوت التي تحلوا لهم ،
أو في القصور الفاطمية . ولما احتاج الى المال للصرف على العسكر ،
اذ كانوا يأخذون منه « النفقة » أو « الجامكية » ، أشير عليه
بارسال حملة الى برقة ، التي كان بها أموال كثيرة ، ولا يسكنها
الا عربان من غير سلاح ، فضلا عما أخذه في مصر من مال
الفاطميين . وعلى ذلك كثرت طوائف عسكره المسماة بلغة عصره :

« أطلاب » ، سواء من الجند القدامى أو الحديثين « قديمها »
وحديثها » حتى بلغ عددها أربعة عشر ألفا سنة ٥٦٧ / ١١٧١ ،
فكانت أشبه بعسكر ملك من الملوك ، على حسب ملاحظة المقرئ .

ومع ذلك كان عليه أن يسير بحذر في سياسته مع نور
الدين ، حتى لا يتعرض لبطشه ، اذ كان له بالمرصاد ، يعد عليه
تصرفاته ، ولا سيما أن أمراء جيشه كما ذكرنا ، كان أغلبهم من
القواد النورية ، الذين يكاتبون نور الدين ، ويدينون بالولاء له .
ولذا نراه في أول الأمر لم يتسرع بإلغاء الخلافة الفاطمية ،
واعتل يتشيع المصريين وعدائهم ، ولم يلغها الا بعد ثلاث سنوات
من توليته وزارة العاضد ، حيث أتاحت له الفرصة بتقوية سلطته
في مصر . وبعد الإلغاء ، لا يوحى لنور الدين بأفكار خاصة تؤخذ
عليه ، فلم يبعث ببشارة الإلغاء من قبله الى الخليفة المستضيء ،
وانما بعثها لنور الدين ليبعثها للخليفة العباسي ، فهيأ له بذلك
شرف إعلانها . كذلك لا ينتقل من دار الوزارة الكبرى بالقاهرة ،
التي كان يقيم فيها وزراء التفويض الفاطميين منذ الوزير الأفضل ،
حتى انها عرفت أيضا : بالدار الأفضلية ، وانما بقي فيها مثلما
كان من قبل كنائب لنور الدين بمصر ، وكان صلاح الدين يخاطبه
في مراسلاته : بمولانا ، دلالة على خضوعه له . وفي الوقت
نفسه ، حاول أن يسترضيه بارسال الهدايا له ولأسرته ورجال
دولته ، من الغلمان والجواري والخيول وبدائع الأموال والجواهر ،
مما أخذه من خزائن الفاطميين .

أما من ناحية نور الدين نفسه ، فمع كرهه لصلاح الدين
ورغبته في البطش به ، فانه وجد من السياسة أن يصبر عليه
حتى يلغى الخلافة الفاطمية ، وإن كان صبره كاد ينفذ . فلما
تم الإلغاء عمل حثيثا على استدراجه خارج مصر ، التي وطد أقدامه

فيها . فدعاه الى مهاجمة الكرك والشوبك في سنة ١١٧١/٥٦٧ ، وهما القلعتان الصليبيتان الحصينتان المسيطرتان على الطرق المارة من دمشق الى مصر والحجاز ، وذلك أثناء مهاجمته لهما . فراوغ صلاح الدين ، الذي فهم سوء نية نور الدين نحوه ، ولا سيما أن أخصاءه حذروه منه ، واعتل باختلال أحوال مصر ، مفضلا وجود الفرنجة فيصلا بينهما ، عن أن يقابله وجها لوجه ، ولكنه أرسل اليه هدايا . ففضب نور الدين ، وهو ما عبر عنه المؤرخون « بالوحشة » أو « النفرة » ، وفكر في المجيء الى مصر ، لخراج صلاح الدين . وقد ارتكب صلاح الدين هفوة ، ربما ترتب عليه مجيء نور الدين الى مصر ، لولا اسرعه باصلاحها بفضل مؤازرة أبيه : فحينما سمع صلاح الدين بتفكير نور الدين في المجيء الى مصر ، جمع أهل المشورة من أهله وأمرأه الجيش النورية ، حيث أعلن فيهم ابن أخى صلاح الدين ، أنه اذا ما فكر نور الدين في المجيء لمصر فانه يجب قتاله ولكن أبا صلاح الدين وهو ذو رأى ومكر وعقل ، قال على مسمع من قواد نور الدين : « لو أمرنا نور الدين أن يضرب عقلك بالسيف لفعلنا ، فاذا كنا نحن هكذا ، فكيف يكون غيرنا » ثم قال : « وهذه البلاد له ، ونحن مماليكه ونوابه فيها . . . » . فتفرق القواد النورية على هذا الرأى ، بعد اقتناعهم باخلاص أهل صلاح الدين لنور الدين ، وكتب أكثرهم لنور الدين بالخبر . فلما خلا أيوب بابنه صلاح الدين قال له : « يا بنى ، بأى عقل تجمع هذا الجمع الكثير ، وتطلعهم على شرك ، وما فى نفسك ، أما بعد الذى قلت ، فانه سيعبد عن قصدك » . وفعلنا عدل نور الدين عن المجيء الى مصر . ولكى لا يكدره صلاح الدين ، ذهب بمفرده الى الكرك فى السنة التالية ١١٧٣/٥٦٨ ، وكانت أول غزواته من مصر ، وان اضطر الى العودة سريعا ، بسبب وفاة أبيه ، الذى نفر به فرسه أثناء الركض

واللعب بالكرة . وبذلك تفادى صلاح لقاء نور الدين مرة أخرى . وأرسل اليه يسترضيه ، ويعلن فى رسالة كتبها له بما وقع فى هذه الغزوة ، بلسان الولاء .

بيد أن نور الدين شعر أنه لا سلطة له اطلاقا على صلاح الدين ، ولا يمكن الاعتماد عليه فى حرب الفرنجة ، فقرر اخراجه من مصر بأى ثمن . وكخطوة أولى أرسل الى الخليفة يطلب منه نقله ما بيده من البلاد المصرية والشام والجزيرة وغيرها عام ١١٧٢/٥٦٨ ، فأجابه الخليفة الى ذلك . ثم تحرش بصلاح الدين بأن بعث اليه رسولا من قبله عام ١١٧٣/٥٦٩ ، لعمل حساب البلاد وكشف أحوالها ، ومعرفة ما اذا كان فى طاعته ، بحيث غضب صلاح الدين ، ورد على الرسول بقوله : « الى هذا الحد وصلنا » . وكاد يعلن عصيانه ، لولا أنه كظم غيظه ، ليضيع على نور الدين حجتة فى المجيء الى مصر ، فسهل للرسول مهمته ، وأمر بعمل الحساب وعرضه عليه ، وبعث معه من جديد هدايا لنور الدين . ابان ذلك ، كان نور الدين قد أرسل يطلب العساكر من بلاد الجزيرة ، ويستعد للمجيء الى مصر ، لولا أنه توفى بمرض كان أصابه فى حلقه « الخوانيق » ، كثيرا ما قض مضجعه .

ويجب أن نذكر أن صلاح الدين ما كان يستطيع أن يفعل شيئا مع نور الدين لو جاء الى مصر ، اذ كان نور الدين - على رأى مؤرخى عصره - شخصية قوية ، حتى انها شبهت بالخلفاء الكبار ، لما كان يراهى اليه من عزة الاسلام ، ولقوة حماسه فى قتال الصليبيين ، بحيث عرف كأبيه بالشهيد لطلبه الشهادة فى قتالهم ، واعتبر من أشد أعدائهم على حد قول وليم الصورى المؤرخ : Noradinus, li crueus « anemis aus Crestins » ونرى أن نور الدين استحق هذه المكانة ، لأنه كان المجاهد الوحيد بين

الملوك المسلمين ، الذين تراخوا في الجهاد ، ولم يهتموا الا بأمورهم الخاصة . ومع ذلك فهو لم يحصل على نتائج حاسمة من جهاده ، مثلما حصل أبوه من قبل الذي تمكن من القضاء على إحدى الدويلات الصليبية الكبرى أو حتى مثلما حصل صلاح الدين فيما بعد .

ويبدو أن يد القدر ، هي التي كانت تمهد لصلاح الدين الطريق ، فأزالت نور الدين في الوقت المناسب ، وإن قيل أن صلاح الدين تأثر لموته وخنقته العبرات ، مما يدل على تقديره لصفاته على الرغم من عداوتهما . ومن ناحية أخرى ، كان صلاح الدين وأهله سيقاتلون إلى آخر رمق في سبيل ما أحرزوه في مصر من مؤدود بمجهودهم ، يدل على ذلك ما قاله أيوب لابنه صلاح الدين : « والله لو أراد نور الدين قسبة من قصب السكر - إشارة إلى أرض مصر - لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل » . ولكن لبعض المؤرخين روايات منها : أن صلاح الدين ما أرسل أخاه توران شاه إلى النوبة واليمن ، إلا لكي يجد فيهما ملجأ إذا ما هاجم نور الدين مصر .

وبموت نور الدين تأكدت سيطرة صلاح الدين على مصر ، إلا أنه فكر أيضا في أن يخضع له بلاد الشام والجزيرة ، أي البلاد التي بقيت بأيدي المسلمين وسيطر نور الدين عليها . وعرفت : « بالدولة الأتابكية » . وكان صلاح الدين يستهدف من وراء ذلك تكوين جبهة إسلامية ، أو على حد قوله : جمع الكلمة ؛ وهو ما كان نور الدين يسعى إليه قبله . وشجعه على ذلك أن نور الدين ترك طفلا صغيرا خلفا له ، لا يزيد عمره عن إحدى عشرة سنة ، وهو الملك الصالح اسماعيل ، وما ترتب على ذلك من تنازع الأمراء النورية الوصاية عليه ، بزعامة شمس الدين محمد بن المقدم ، وسعد الدين كمشتكين - الأمير الفضى - الذي

قام بخطفه من دمشق إلى حلب وحجر عليه ليحكم باسمه ، وبقي ابن المقدم في دمشق . وهكذا أصبحت الوصاية عليه موضع نزاع بين دمشق وحلب .

وفوق هذا فإن ابن عم الملك الصالح واسمه سيف الدين غازي ، ما أن سمع بموت نور الدين ، وكان في طريقه إلى الشام لما طلب منه نور الدين المجيء بالجند لإخراج صلاح الدين من مصر ، حتى استخدم ما جمعه من جند في الاستقلال بالديار الجزرية ، وفكر أيضا في العبور إلى الشام ليملكها من الملك الصالح ، ولا سيما أن قواد الملك الصالح لم يكونوا يستطيعون أن يفعلوا شيئا ضده ، لتنافسهم وخوف بعضهم من بعض . وكان نور الدين قد ضم الديار الجزرية إلى ممتلكاته الشامية ، بعد موت أخيه الأصغر قطب الدين مودود بن زنكي في سنة ٥٦٥/١١٧٠ . وإن قبل منح الموصل لابن أخيه سيف الدين غازي بن مودود على أن يبقى كمشتكين المذكور معه ، وأمره ألا ينفرد عن كمشتكين بقليل أو كثير في حكمها ، واقطع ابن أخيه الآخر - وهو الأصغر - عماد الدين زنكي بن مودود مدينة سنجار الواقعة قرب الموصل . ولكن كمشتكين بعد موت نور الدين ، تمكن من الهروب من سيف الدين غازي ، وخطف الملك الصالح من دمشق ، وحكم باسمه في حلب .

فجعل صلاح الدين تحت ستار الدفاع عن حقوق الملك الصالح وأهلاكه ، يعلن الخطبة له بالديار المصرية ، ويرسل إليه دنائير عليها اسمه ، ويكتب إلى الأمراء النورية بالشام يهددهم بحضوره لحماية مولاة من طمعهم ، فيقول : « إن الملك العادل . . سلم إليه مصر ، التي هي أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يجعل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سوى ،

وأراكم قد تفردتم بخدمة مولاى وابن مولاى دونى ، فسوف أصل الى خدمته وجازى انعام والده » . ومع ذلك لا يبدو ان صلاح الدين غادر مصر الى الشام ، الا بعد أن استدعاه أمراء دمشق ، وعلى رأسهم ابن المقدم ليعارضوا به كمشتكين الذى حصر على الملك الصالح فى حلب ، وخوفا منه اذ كان يحكم فى أكبر ولايات نور الدين وهى مصر الغنية ، واستنجادا به من الفرنجة الذين أخذوا فى مهاجمة نواحي دمشق ، وحتى لا يخرج عن طاعة الملك الصالح . وكانوا قد كاتبوا فى أول الأمر سيف الدين بالجزيرة ، ولكنه لم يرد عليهم لمصالحته كمشتكين والملك الصالح على ما أخذه من بلاد الجزيرة .

فأسرع صلاح الدين بالمجيء الى الشام ، وتفادى الفرنجة فى طريقه ، ودخل دمشق من غير محاربة فى ربيع الآخر من سنة ٥٧٠ أكتوبر ١١٧٤ ، حيث قرب اليه الامراء الذين كاتبوه ، وجزى ابن المقدم بمنحه الاقطاعات . وقد أعلن صلاح الدين لأهل دمشق أنه انما جاء لتربية الملك الصالح ، وأنه ينوب عنه فى تدبير دولته ، وكتب الى جميع البلدان الاسلامية بذلك .

وليؤكد عزمه على فرض وصايته على الملك الصالح أصدر عملة عليها اسم الملك الصالح مع اسمه ، مع انه قبل ذلك لم يكن وضع اسمه اطلاقا على العملة ، سواء لما كان وزيرا للفاطميين ، أو نائبا لنور الدين ، وانما كان يذكر اسم الخليفة الفاطمى ، أو اسم نور الدين مع الخليفة العباسى .

وبعد دمشق ، استولى صلاح الدين على عدة مدن منها : حمص ، وهى المدينة التى كان نور الدين أقطعها لعمه شيركوه ، ثم أخذها من نوابه بعد موته ، ثم ملك حماة بجوارها ، وذهب لحصار حلب . وقد كتب صلاح الدين الى الملك الصالح كتابا

يتواضع فيه ، ويخاطبه بمولانا وابن مولانا ، ويقول : « انما جئت خدمة لك ، ولاؤدى ما يجب من حقك ، فلا تسمع ممن حولك ، فيفسد حالك . . . » . ولكن الملك الصالح مع صغر سنه ، كان كأبيه لا يطمئن لابن أيوب ، فرد عليه مهيدا واصفا اياه . بأنه كافر بالنعمة وباحسان نور الدين ، وقال له على لسان رسوله ، الذى أشار الى سيفه : « ان السيوف التى ملكتك مصر ستردك » . كذلك كان الملك الصالح قد استنجد بابن عمه سيف الدين غازى بالجزيرة ، الذى جهز جيشا مع أخيه عز الدين مسعود مقدم جيوشه ، وانظم الى جيش جمعه هو من أهل حلب ، بعد ان خطبهم خطبة مؤثرة بكى أثناءها ، ذاكرا لهم أنه طفل يتيم محتاج الى مؤازرتهم ، معددا فضل أبيه عليهم . وفوق ذلك أرسل كمشتكين أموالا عظيمة الى راشد الدين ، المسمى شيخ الجبل زعيم قلاع الشيعة الاسماعيلية بالشام ، لاغتيا لصلاح الدين عن طريق الفداوية وهم المخلصون من أتباعه ، ولا سيما أن اسماعيلية الشام كانوا يحقدون على صلاح الدين قضاءه على اسماعيلية مصر ، وان كانوا لا يقبلون القتال الى جانب الزنكيين ، بسبب أن نور الدين أذل شيعة حلب .

وقد قدر صلاح الدين خطورة موقفه فى الشام ، لما هاجم الفرنجة طرابلس جيشه بتحريض كمشتكين ، مهددين مؤخرته فى حمص . فرفع الحصار عن حلب . وبخاصة أن سنانا كان أرسل اليه جماعة من الفداوية ، تمكنوا من قتل حرسه ، وكادوا يقتلونه . فأرسل يعرض على قواد الملك الصالح الصلح ، على أن يعطيهم حمص وحماة ، وان تبقى فى يده دمشق ، ويكون بها نائبا للصلح . ولكن القواد ظنوا أن صلاح الدين خافهم . فرفضوا الصلح ، وخرج اليه عسكر الجزيرة بقيادة عز الدين يتعقبه ، فقاتلهم صلاح الدين وهزمهم فى معركة حامية قرب حماة ، وتتبعهم الى

حلب ، ليحاصرها من جديد . فلما طال حصاره على حلب راساه
فى الصلح ، على أن يكون لكل واحد ما ييده ، فأجابهم الى ذلك
ورفع الحصار عنها فى سنة ١١٧٤/٥٧٠ .

وبينما هو فى طريق العودة الى دمشق جاءت خلع الخليفة
المستضى ومعهما أعلام سوداء ، لتفرق على جوامع مصر والشام ،
وكتب له تقليدا بالسلطنة على مصر والشام واليمن مستثنيا من
الشام المراكز التى بيد اسماعيل بن نور الدين وهى حلب
وأعمالها ، التى أبقاها الخليفة له لأن أباه له آثار عظيمة فى خدمة
الاسلام . وقد أكد الخليفة لصلاح الدين مخاطبته بالملك الناصر
وهو اللقب الذى ناله من الخليفة الفاطمى العاضد لما تولى وزارته ،
ولم يغيره له ربما لأن صلاح الدين هو الذى اختاره ، أو لأنه أصبح
يعرف به ، وان كنا نذكر أن نور الدين لم يمنحه غير لقب
الاسفهسلار أى القائد . كذلك وصفه فى التقليد بأنه خليل أمير
المؤمنين ، وسند الخلافة العباسية ، هادم الشيعة بمصر واليمن .
ويبدو أن التقليد جاء بناء على طلب صلاح الدين ، اذ كان قد كتب
الى المستضى كتابا طويلا يذكره فيه بأنه أعاد الخطبة العباسية
بمصر وأماكن أخرى ، بقضائه على الخلافة الفاطمية ، ويطلب منه
تقليده مصر واليمن والمغرب والشام ، وكل ما يفتحه بسيفه
فكان هذا التقليد أول مظهر شرعى لسيادة صلاح الدين ، الذى
أتمها بإزالة اسم الملك الصالح من الخطبة فى الجوامع ، ومن
العملة التى نقش عليها اسمه : « الملك الناصر يوسف بن أيوب » ،
بجانب اسم الخليفة العباسى : « أبو محمد المستضى بأمر الله
أمير المؤمنين » .

وقد قام عليه وقتذاك بدمشق عماد الدين الكاتب
(ت ١٢٠٠/٥٩٧) ، الذى ولد باصبهان فى ايران ، وعمل فى

الكتابة الديوانية لنور الدين ، ثم ترك الشام بعد موته الى العراق
خوفا من أتباع الملك الصالح لصلته السابقة ببيت أيوب حينما
كانوا بالشام . فعمل عماد الدين كاتباً لصلاح الدين فى الشام
نائباً عن القاضى الفاضل بمصر ، وأصبح يذهب معه فى كل
تنقلاته ، فكان مؤرخاً حربياً نقل إلينا فى كتبه العديدة أخبار
صلاح الدين وانتصاراته . وقد شبه القاضى الفاضل حماس
عماد الدين فى الكتابة عن صلاح الدين بقوله انه : « كالزناد
الوقاد » .

ولكن صلاح الدين ما لبث أن غادر دمشق الى حلب من
جديد . نتيجة لنقض الملك الصالح الهدنة ، ومجئ سيف الدين
غازى - ابن عم الملك الصالح - بنفسه الذى لم يقبل هزيمة
صلاح الدين لأخيه عز الدين مسعود . فخرج سيف الدين وقابل
صلاح الدين بتل سلطان من نواحي حلب فى شوال ١١٧٦/٥٧١ ،
فهزمه صلاح الدين هزيمة منكرة ، واضطره الى الهروب نحو
بلاده . حتى انه لم يصدق أنه نجا بجلده . وبعدها عاد صلاح
الدين الى حصار حلب وغزا أعمالها ، وفى أثناء ذلك هاجمه بعض
فداوية الاسماعيلية ، وكادوا يقتلونه ، لولا وجود صفائح الحديد
حول رقبته . وبعد حصار طويل لحلب ، طلب الملك الصالح
الصلح من صلاح الدين ، الذى أجابه اليه . وقبل رجوع
صلاح الدين نحو دمشق ، هاجم قلاع الاسماعيلية ، وعلى الأخص
مصباب وهى حصن حصين بساحل الشام قرب طرابلس بجبل
لبنان . فأرسل اليه سنان يطلب الصلح ، فوافق صلاح الدين ،
ربما خوفاً من عودتهم الى الاتفاق مع كمشتكين ، أو لحصانة
مراكزهم الجبلية . وقبل أن يغادر دمشق تزوج من الخاتون
عصمة الدين أم الملك الصالح اسماعيل ، وكانت قد بقيت فيها
منذ وفاة زوجها نور الدين ، مما يدل على بقاء أطماع صلاح الدين

في حكم مملكة ابنها . وقد أضافت المصادر الأوروبية أنه تزوجها لأنه كان يحبها منذ أن كان في بلاط نور الدين بدمشق ، وأنها سميت نور الدين ، لتسهيل له الوصول على السلطنة .

والواقع ان صلاح الدين بقي وراء أهدافه يتربص بحلب ، ولم يكن يبعده عنها غير اهتمامه بأحوال مصر ، أو غاراته على بلاد الفرنجة . وكانت شئونها قد اضطربت ، حينما ظهر منافس لكمشتكين اسمه ابن العجمي من أمراء نور الدين السابقين المقربين ، بحيث انضم اليه الناقمون على كمشتكين وقربه الملك الصالح . ولكن قتل فداوية الاسماعيلية ابن العجمي ، ربما بتحريض كمشتكين ، فاتهم الملك الصالح كمشتكين بقتله ، وقتله في سنة ١١٧٧/٥٧٣ ، مما جعل الفرنجة يستفيدون من هذا الاضطراب بمهاجمة ضواحي حلب . ومع ذلك بقي صلاح الدين وفيًا لصلحه مع الملك الصالح ، الذي زادت سلطته بمقتل كمشتكين ، فلم نسمع عن مهاجمته له الى وقت وفاته ، ربما طمعا في السيطرة عليه بالحسنى ، وليبين للمسلمين وفاء لابن نور الدين ، واحترامه لتقليد الخليفة الذي استثنى حلب واعمالها .

ولكن لما توفي الملك الصالح في ١١٨١/٥٧٧ ، سعى صلاح الدين حثيثا للاستيلاء على حلب ، وكان الصالح قد أوصى بها لابن عمه عز الدين مسعود ، الذي ملك معظم بلاد الجزيرة بعد موت أخيه سيف الدين غازي في سنة ١١٨٠/٥٧٦ ، الا ان عز الدين تنازل عنها لأخيه عماد الدين مقابل سنجار ، ربما خوفا من صلاح الدين الذي هزمه ، أو لأن عماد الدين كان على علاقة طيبة بصلاح الدين ، الذي كان قد أطمعه في الملك . فامتنع عماد الدين عن محاربة صلاح الدين مع أخيه سيف الدين ، الذي حاصره بسنجار لهذا السبب ، وان صالحه بعد ذلك لذلك لما ذهب

صلاح الدين الى حصار حلب في سنة ١١٨٣/٥٧٩ ، وكان قد شغل عنها زمنا بغزواته في ديار الجزيرة ، تنازل له عماد الدين عنها بعد مناوشات قصيرة قتل فيها أخو صلاح الدين المسمى بوري ، على ان يأخذ عماد الدين عوضا عنها سنجار ومدنا وقرى في الجزيرة ، كان صلاح الدين قد استولى عليها أثناء غاراته فيها . وقد اعتبر أهل حلب تنازل عماد الدين من سوء السياسة ، بحيث اتهموه بأنه لا يصلح للملك ، وانما لغسل الثياب ، وشيعه أهلها بقولهم : « يا حمار بعث حلب بسنجار » . أما صلاح الدين ، فقد كان سروره بالغ بأخذ حلب ، بحيث قال : « الآن قد تبينت اننى أملك البلاد ، وعلمت ان ملكي قد استقر وثبت » . والواقع ان أخذ صلاح الدين لحلب ، حقق أهدافه ببسط سلطانه على جميع بقاع الشام الاسلامية ، وأصبح بفضل سيطرته فيها وفي مصر محيطا بالامارات الصليبية من كل جانب احاطة السوار بالمعصم ، فقربه ذلك من تحقيق أهدافه في جهادهم ، بحيث قال في إحدى رسائله للخليفة العباسي : « أمور الحرب لا تحتمل في التدبير الا الوحدة » .

وفي الوقت ذاته كان صلاح الدين تحت ستار لم الشمل أمام الصليبيين يغير في ديار الجزيرة ، ليتم بسط نفوذه على بقايا الدولة الأتابكية . وساعده على انجاح غاراته ، وجود عدد كبير من الأمراء غير المتحدين ، وكثير من الأكراد بنى جنسه الساكنين فيها . ويبدو أن صلاح الدين تمكن من فتح بلاد كثيرة فيها ، حتى أنه لم يهتم وقتئذ باغارة الصليبيين على دمشق ، وقال : « يخربون قرى ونملك عوضها بلادا ، ونعود نعرها ونقوى على قصد بلادهم » وقد زادت سيطرته في ربوعها بقبول عماد الدين أن يكون خاضعا له بسنجار وغيرها من المدن الجزرية ، التي أخذها من صلاح الدين عوضا عن حلب . لذلك أصبح هم صلاح الدين اخضاع عز الدين ،

الذي سيطر على بعض أماكن الجزيرة ، ولا يتورع عن التعاون مع الفرنجة ضده . فهاجم صلاح الدين قسبة أملاكه وهي الموصل . إلا أنها قاومته بشدة ، إذ كانت مركز البيت الزنكي منذ ظهوره . وقد كان ابن الأثير المؤرخ يشهد استماتة أهل الموصل في صدهم صلاح الدين ، الذي اضطر إلى حصارها عدة مرات . ولكن معظم المسلمين رجوا المصالحة لوجود الصليبيين ، فحثوا عز الدين على طلب الصلح من صلاح الدين ، فأرسل إليه والدته وبعض النساء من بيت زنكي ، كما أرسل مندوبه بهاء الدين بن شداد (م ٦٣٢/١٢٣٤ م) ، إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله - الذي تولى الخلافة بعد أبيه المستنصر - للتوسط بينهما . وإن لم يكن الخليفة يبدو راغبا في التدخل في هذا النزاع . إذ ربما كان من صالحه أن يبقى المسلمون فئات متنافسة ، فقد قدم سبعين تقليدا إلى ملوك المسلمين وأمرائهم في سنة ٥٧٠/١١٧٤ . ثم أرسل عز الدين بهاء الدين من جديد إلى صلاح الدين . وبقي في ابن شداد بدلا من تأييد أميره انضم إلى صلاح الدين ، وبقي في خدمته بعد اتمام الصلح ، حيث رسم لنا لوحة سيرته بريشة الأديب في كتابه : « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ، ويظهر فيها مدى إعجابه بشمائل صلاح الدين . ومع أن صلاح الدين رفض الصلح أول الأمر ، حتى أنه رد النساء ولم يقبل وساطة بهاء الدين . ولكنه قبله لما وافق عز الدين أن يسلمه بعض البلاد ، ويخطب له على منابر الموصل ، ويسك العملة باسمه . وذلك في سنة ٥٨١/١١٨٥ . أضف إلى ذلك أن صلاح الدين مرض ، وتآمر عليه ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ، وكان يدعى أنه أحق بالسلطنة منه ، ودعا أهل الشام لتسليمه البلاد عند موت صلاح الدين . ويروى المؤرخون أن صلاح الدين قد يكون اغتاله ، وإن أبقى إقطاعه في حمص لولده . وبذلك

سيطر صلاح الدين على أملاك البيت الزنكي جميعها ، وكان كلما مات أحدهم ضم أملاكه إليه . ويندب ابن الأثير حظ بيت زنكي ، إذ اعتبرهم أصحاب دولة صلاح الدين ، فيقول مؤاخذا صلاح الدين . « قلت ما تبالي يا ابن أيوب أي موة تموت » . ولا ريب فقد كان ابن الأثير (ت ٦٣٠/١٢٣٣) ، موصلي المولد ، تربى هو واخوته في كنف الزنكيين ، ولم ينضم لصلاح الدين على عكس معظم مؤرخي عصره ، وقد أفرد لتاريخ بيت زنكي كتابا خاصا يسيح فيه بحمدهم ، عنوانه : « تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصل » .

كذلك سعى صلاح الدين إلى تحسين علاقته بسلاجقة آسيا الصغرى ، حتى لا ينضموا إلى الزنكيين ضده ، ولأن بلادهم في طريق الفرنجة البرى إلى الشرق . وفي أول الأمر اضطر إلى الاصطدام بهم ، وذهب بنفسه لمحاربتهم ، كما حدث في سنتي ٥٧٥ - ٥٧٦/١١٧٩ - ١١٨٠ ، وذلك لاسترداد بعض الحصون التي استولى عليها قلعج أرسلان بن مسعود ابن قلعج أرسلان (الثانى) صاحب بلاد قونية « Iconium » بآسيا الصغرى ، منتهزا النزاع بينه وبين الأمراء الزنكيين . وكذلك لما حاصر صلاح الدين الموصل في سنة ٥٨١ / ١١٨٥ ، هدده قلعج أرسلان بالحرب ، كما هدده ترك إيران ، إذ كرهوا قيام دولة كبيرة على حدودهم ، كما أن عز الدين كان يذكر لقلعج أرسلان الخطبة في بلاده احتما به . ولكن لما عقد صلاح الدين الصلح مع عز الدين ، تحسنت علاقته مع قلعج أرسلان ، بحيث نجده يتعاون على فض المنازعات في دولته بين أبنائه البالغ عددهم اثنا عشر ولدا ، إذ أن قلعج أرسلان قام على عادة السلاجقة بتوزيع مملكته بين أولاده ، الذين انتهزوا ضعف والدهم ليستقل كل واحد منهم بناحيته ، حتى أن أحدهم يذهب إلى دمشق ، ومن تقديره لصلاح الدين مساعدته على ركوب

الفصل الخامس

حملاته ضد الصليبيين •

رأينا الظروف التي هيأت لظهور صلاح الدين ، والخطوات المتأنية التي اتبعتها في سبيل تكوين جبهة متحدة من مسلمي الشرق بزعامته ، بقضائه على الخلافة الفاطمية في مصر ، لتبقى بينهم خلافة واحدة هي الخلافة العباسية ، ومحاربته الأمراء الزنكيين في الشام والجزيرة الى أن دانوا له بالطاعة • بعد ذلك ، استغل الوحدة الاسلامية في قتال الصليبيين ، الذين كانوا الى هذا الوقت قد استنفادوا من ضعف مسلمي الشرق وتشتتهم ، فاستطاعوا تكوين دويلات قوية في قلب بلادهم • فكان الأقدار أرسلت هذا الكردي الغريب الى بلاد الشرق ، ليحول ضعف المسلمين فيه قوة ، وتشتتهم وحدة ، ويغير صفحة تاريخهم ، بحيث أن ما قام به من حروب ضد الصليبيين ، يعتبر رد اعتبار للإسلام ، الذي كان قد أذل • وقد أصبح رمزه « النسر » ، دلالة على القوة ، والقدرة على الانقضاء على الأعداء •

وفي أول الأمر ، وهو في مصر لم ينطلق الى قتال الصليبيين ، للظروف التي أحاطت به من غضب نور الدين عليه ، حتى أنه كان يفضل وجودهم بينه وبين نور الدين ، فضلا عن ثورات المصريين ضده • ولكنه لم يتردد في مقاومتهم لما هاجموا مصر ، بسبب

حصانه ، كما لاحظ ابن الأثير • ومع ذلك وجدنا صلاح الدين قبل موته بأيام ، يفكر في قصد بلاد السلاجقة بآسيا الصغرى لفتحها ، لأنها في نظره طريق الفرنجة ، وهي أسرع البلاد مأخذا لضعفها • وقد كان موقف صلاح الدين العدائي من السلاجقة سببا جعل البيزنطيين ، يسعون الى تحسين علاقتهم معه ، ولا سيما أن اليونان لم يكونوا ينظرون بعين الرضا عن مجيء الغربيين في الشرق •

والثابت المحقق أن صلاح الدين قضى على نفوذ الدولة الأتابكية ، كما فعل بالخلافة الفاطمية من قبل ، وهو الذي لم يكن يدور بخلفه مطلقا - لما جاء مصر - أن يرث أملاك الدولتين ، ويكون أكبر امبراطورية في الشرق بزعامته •

خوفهم من وحدة المصريين والشوام والجزريين ، وما يترتب على اتفاقهم من ضياع ملكهم فى الأراضى المقدسة . وقد كان خطرهم على مصر هذه المرة أشد مما سبق ، اذ يبين الأسقف وليم الصورى ، الذى كان الساعد الأيمن لملك الفرنجة عمورى ، خطة هجومهم الجديد : وهى أن يزحف الصليبيون على مصر بقوتين من ناحيتين : أحدها من فرنجة الشام ويونان ببيزنطة معا من ناحية الشرق ، وثانيهما من نورمان صقلية من ناحية الغرب .

فقد اتفق فرنجة الشام ويونان ببيزنطة على ارسال حملة بحرية كبيرة الى ثغر دمياط الهام الواقع على فرع النيل المسمى باسمه ، بلغت ما يزيد على ألف ومائتى مركب ، وذلك فى سنة ١١٦٩/٥٦٥ . وعلى الرغم من غضب مانويل من عمورى ، لقيامه بحملته البرية الأخيرة على مصر بدونه ، فانه وافق على انفاذ أسطول قوى الى عسقلان ، لينضم الى أسطول الفرنجة بقيادة اندرونيكس كونتستفانس «Andronicus Contostephanus» ، كما وصلتهم من نورمان صقلية عدة وافرة من آلات الحصار . كالمجانيق التى تلقى بالأحجار والنار «النفط» ، والدبابات التى تستخدم فى نقب حوائط الأماكن المحصنة . فلما وصلت الحملة دمياط ، بذل صلاح الدين مجهودا هائلا لامداد حاميتها ، لتستمر فى المقاومة . فكان وهو فى القاهرة يرسل اليها المدد بعد المدد ، ويسهر الليل ولا ينسام بالنهار ، ويحث الجميع على الجهاد . كذلك لما سمع نور الدين غزو الفرنجة واليونان على دمياط ، هاجم حصون الفرنجة بالشام . ولكن الحصار انتهى بالفشل بعد استمراره خمسة وخمسين يوما ، بفضل استماتة حامية دمياط وأهلها فى الدفاع ، وهبوب العواصف التى تسببت فى غرق ثلثمائة مركب ، ولنقص المؤن . فشبه ابن الأثير رجوع الفرنجة

وهم يجرون أذيال الفشل ، ليجدوا بلادهم خرابا يبابا من هجوم نور الدين : « بالنعامة التى ذهبت تطلب قرنين ، فعادت بلا أذنين » .

أما الهجوم من الغرب على مصر ، فقد كان على ثغر الاسكندرية الهام ، قام به وليام الثانى «William II» ، الذى جده روجر «Roger» مؤسس مملكة النورمان بصقلية ، ويسميه المقرئى غليالم بن غليالم بن رجار ، وذلك فى سنة ١١٧٤/٥٦٩ . ويبدو أن سبب تأخير هجوم وليام الى هذه السنة ، انشغاله بمهاجمة دولة الموحدىين بشمال افريقيا . وقد اهتم باعداد أسطول هائل ، جمع نحو خمسين ألف مقاتل ما بين راجل وفارس ، وزوده بالخيول وآلات الحصار والأزواد . فلما نزل الأسطول على ثغر الاسكندرية ، أغرق كل ما وجده فيها من مراكب مسافرة ومقاتلة ، ونزل رجاله الى البر ، وأقاموا على حصار المدينة نحو ثلاثمائة خيمة ، وأخذوا فى رمى أسوارها بالكباش ، وهى آلات حصار - كالمجانيق - مفردها كبش أو كبوش لرمى الحجارة والنار «النفط» . ولكن أهل الاسكندرية كمثل أهل دمياط ، دافعوا عن مدينتهم بشجاعة نادرة ، نوه بها معظم المؤرخين فى كتبهم . ولما وصلت عساكر صلاح الدين من القاهرة ، فتحو الأبواب وهاجموا خيام الفرنجة فى الليل ، واقتحموا البحر وأغرقوا المراكب ، فوالت بقية المراكب منهزمة متراجعة الى قواعدها .

وقد كان هجوم الفرنجة على مصر سببا جعل صلاح الدين يعمل بعزم على تحصينها . فنجدته يقوم بإنشاء سلسلة من التحصينات فى القاهرة ، وثغور مصر البحرية ، وحتى فى صحراء سيناء ، ولا تزال توجد بعض آثار تحصيناته تحت أنظارنا الى

الآن . وفي سبيل انجازها ، لم يبخل بالمال ، وأنفق عليها أموالا طائلة .

ففي القاهرة أعاد بناء السور المحيط بها ، وهو الذى كان سببا في انقاذ الخلافة الفاطمية من أعدائها عدة مرات ، اذ يذكر أبو شامة المؤرخ كلمة عمارة ، وهي تعنى إعادة البناء . وكان جوهر بناء بطوب نبيء أو لبن (أى لم يحرق بالنار) ، ثم رممه بدر الجمالى وزاد فيه ، الا أنه في آخر أيام الفاطميين تهدم أكثره ، وأصبح يمكن عبوره في أى مكان . ويبدو أنه كان عبارة عن سورين سور للقاهرة وسور لمصر (الفسطاط) ، فرأى صلاح الدين لتسهيل الدفاع عنهما بحامية واحدة ، أن يدير عليهما سورا واحدا ، وزاد أن أدخل فيه القطائع والعسكر لذلك اعتبر منشئ القاهرة الحالية ، فبلغ طول السور ٢٩٣٠٢ « ذراع » وحفر حوله خندقا في بعض أجزائه . وقد قام بالاشراف على بنائه الطواشي قراقوش ، الذى كفل اليه صلاح الدين القيام بالاشراف على تحصينات أخرى في القاهرة وغيرها ، مما يدل على علو همته ، وذلك في نحو سنة ١١٧٦/٥٧٢ .

ولعله في وقت بناء السور ، أمر صلاح الدين نفس الطواشي قراقوش ببناء القلعة ، وان كان النقش الذى وجد على بلاطة بداخلها ، يبين أنه أمر بانشائها في سنة ١١٨٣/٥٧٩ ، وهو بالأحرى تاريخ يدل على أن قدرا كبيرا منها قد أنجز بناؤه في هذه السنة . ولا ريب أن صلاح الدين أخذ فكرة بنائها من قلاع الفرنجة بالشام ، أو من قلاع الاسماعيلية بنواحي جبل لبنان ، ولا يمكن أن يكون قد أخذها من الفاطميين ، الذين لم يبنوا القلاع ، ربما لاضطراب أحوال دولتهم . وقد بنيت القلعة على نشز مرتفع بجبل المقطم في وسط السور ، فعرفت باسم قلعة الجبل ، بقصد

أن تكون دار مملكة مثل المدن التى أقامها الحكام قبله كالفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة ، تشمل دور سكنه ، ومعسكرات جيشه ، ودواوين دولته . فكان قراقوش يستحث رجاله لانجاز بنائها ، وكان أسرى الفرنجة من حروب صلاح الدين بالشام يقومون بنقل الحجارة من الأهرامات المهدمة ، أو يجلبونها من تحت الصخور ، وينشرون الرخام ، ويحفرون الخنادق . ولما شغل صلاح الدين بغاراته على الفرنجة ، وبنزاعه مع الزنكيين في الشام والجزيرة ، لم يعد يهتم بانجاز بناء القلعة ، بحيث لم ينته بناؤها الا في عهد حفيده الكامل سنة ١٢٠٧/٦٠٤ . ولكثرة ما حدث فيها من تغيير في عهد سلاطين المماليك ومحمد على باشا ، لم تعد تعرف أجزاؤها الأصلية ، التى بنيت في عهد صلاح الدين . ومن الجدير بالذكر ، وجود صورة صقر على القلعة ، الذى هو رمز لصلاح الدين .

وبنى صلاح الدين على النيل غربى مصر بالجيزة جسرا (أو قناطر) ، عبارة عن أقواس جمعت حجارتها من الأهرامات ، فكان كجبل ممدود من الأرض ، يقصد به أن تسلك عليه عساكره في أى وقت . كما بنى في شمال القاهرة في المكان الهام الذى عرف للعرب أيام الفتح باسم أم دنين ، ثم باسم المقس لوجود الماكس أى جابى الضرائب ، برجا هائلا عرف بقلعة المقس أو قلعة قراقوش .

وفوق ذلك اهتم صلاح الدين بتحصين ثغور مصر البحرية على ساحل البحر الأبيض ، لتتمكن من صد الحملات البحرية المعادية ، ولا سيما بعد تلك الحملات الهائلة التى هاجمتها . فقام بتحصين دمياط على فرع النيل ، وكانت قد انتعشت وأصبحت ثغرا هاما ، لأن فرع دمياط أخذ محل الفرع البلوزى - نسبة الى بلوزيم

«Pelusium» القديمة وهي الفرما في عهد العرب شرقي دمياط - الذي كان أخذا في الاضمحلال . فكانت دمياط في أيام قوة الخلافة الفاطمية دار صناعة للسفن الحربية ، تخرج منها الأساطيل للجهاد ، فيكون لها ببلاد العدو صيت ورهبة . فأمر صلاح الدين بتقوية السلاسل الحديدية الثقيلة ، التي كانت تشد بين برجين من الحجر ، حتى لا تستطيع المراكب المعادية أن تدخل الميناء . وفي سبيل استكمال وسائل الدفاع عن البرجين : رتب المقاتلة فيهما ، كما شددت مراكب الى السلسلة ليقاتل عليها . كذلك أمر بترميم سور المدينة ، الذي تهدم بعضه من غارة الفرنجة عليه ، وزاد فيه فبلغ طوله ٤٦٣٠ ذراعا . يضاف الى ذلك ، أنه اهتم بعمارة قلعة تينيس وسورها ، الذي يرجع بناؤه الى أيام العباسيين . وهي جزيرة في وسط الماء مجاورة لبر دمياط اشتهرت بمرفئها التجاري ، الذي كان يربط فيه أيام انتعاش دولة الفاطميين ألف مركب في بعض الأحيان . ولما كثرت غارات الفرنجة عليها ، أصدر صلاح الدين أمره باخلاؤها ، ونقل أهلها الى دمياط سنة ١١٩٢/٥٨٨ ، وجعلها للمقاتلة فقط . أما الاسكندرية ، وهي المدينة الكبرى على ساحل البحر الأبيض ، وكانت هي الأخرى دار صناعة سفن في أيام الفاطميين ، فانه أمر برمي أكثر من أربعمئة عمود بشواطئ البحر من عواميد رومانية كانت حول عمود السواري ، بقصد أن تعوق العدو اذا قدم ، كما جدد أسوارها وأحاطها بالخنادق . وقد كان صلاح الدين شديد الاهتمام بهذه التحصينات ، فسافر الى كل من دمياط والاسكندرية ، ليشرف عليهما في سنة ١١٨١/٥٧٧ - ١١٨٢ ، وبلغ ما أنفقه على تحصينات دمياط وحدها مليون دينار . كذلك وضع الأجناد البطالين ، ربما الخصيان أو المذنبين . في الثغور بالساحل لحراستها ، واهتم بمراقبة السفن الداخلة والخارجة الى مصر ،

فاعد أمناء للصعود الى المراكب لتقييد أسماء الركاب الوافدين وصفاتهم وأسماء بلادهم .

واهتم أيضا بعمل مراكز محصنة أو نقاط حراسة في شبه جزيرة سيناء ، وهي المنطقة الصحراوية التي تفصل بين مصر ومملكة اللاتين بفلسطين ، الممتدة الى حدود مصر في صحراء النقب ، وجاءت جميع غزوات الفرنجة لمصر عن طريقها . فأمر بإنشاء سلسلة من القلاع ، أهمها قلعة صدر في قلب سيناء شرقي السويس في طريق آيلة ، ولا تزال آثارها موجودة الى الآن ، وزودها بالصهاريج لحفظ الماء ، كما كانت القوافل تخرج اليها من القاهرة بانتظام .

ومنذ أن توفي نور الدين ، شنها صلاح الدين حربا شعواء على الصليبيين ، بشكل لم يسمع به من قبل ، ولا سيما أنهم كانوا يريدون أن يستفيدوا من ظروف الاضطراب التي سادت بوفاة نور الدين عدوهم اللدود . فهاجم صلاح الدين حصونهم المتفرقة حصنا بعد حصن في كل مكان ، ولم يمكنهم مما يريدون . وقد جمع لذلك جنودا من الكرد والترك ، والأعاريب ، ومن المتطوعة الذين بلغ عددهم أحيانا عشرة آلاف . ويبدو أنه في أول الأمر تردد في استخدام المصريين ، وبعد ذلك كنا نسمع دائما عن الأجناد المصريين . فكان ينظم عسكره في أطلاب جمع « طلب » ، وهو في اللغة التركية المقدم الذي له علم وبوق ، كما كان يكثر من فرق القراغلامية أي الضابطية ، ربما ليحرسوا له الطرق التي يسلكها . كذلك اهتم بآلات الحرب وصنعها ، فأخرج عددا كبيرا من المنجنيقات برسم الغزاة ، ونجد أن مؤلفا مجهولا لعله مصري الجنسية ، لأنه يذكر صانع اسمه الحسن الأبرقي الاسكندراني ،

كان يمارس مهنته في صنع الأسلحة أيام وزارة ضرغام ، يؤلف له عن الفن الحربى ، وأنواع السلاح . وقد استحق صلاح الدين بحماسة في جهاد الصليبيين ، تلقب الخليفة له : بمحيى دولة أمير المؤمنين ، أما هو فكان ينقش على العملة عبارة : الملك الناصر صلاح الدنيا والدين .

وقد كان همه الأول من هذه الغارات حفظ طرق تحركاته بين مصر والشام ، ليحقق أهدافه في توحيد جبهة المسلمين بزعامته ، وإن اضطر الى عقد هدنة مع الفرنجة سنة ١١٧٥/٥٧١ ، ليتفرغ لمشاكله العاجلة مع الأمراء الزنكيين . ولكنه بعد ذلك عاد الى الاغارة على الساحل في فلسطين سنة ١١٧٧/٥٧٣ ، فلما وصل الى عسقلان على البحر ، وجد معظم فرنجة مملكة بيت المقدس فى انتظاره ، فهزموه هزيمة شديدة ، واستشهد كثير من المسلمين ، ونجا هو بأعجوبة إذ كادوا يأخذونه أسيرا . وقد كتب صلاح الدين الى أخيه توران شاه يبين مدى الخطر الذى تعرض له فى هذه الغارة بقوله : « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما أنجانا الا الله سبحانه منه لأمر يريده سبحانه » . ولكن ما لبث أن عاد صلاح الدين الى الانتصار على الفرنجة ، لما أغاروا على دمشق فى السنة التالية ١١٧٨/٥٧٤ ، رجاء أن يستفيدوا من نصرهم السابق عليه . كما هاجم حصونهم واستولى على بعضها فى سنة ١١٧٩/٥٧٥ . مما جعل ملك بيت المقدس بودوان (أو بلدوان) الرابع «Baudouin VI» - لا يسميه العرب باسم - الذى تولى بعد عمورى ، يسعى الى عقد هدنة معه فى سنة ١١٨٠/٥٧٦ . ولما توفى بودوان الرابع ، وكان مصابا بمرض الجذام ، ترك الملك بعده لابن أخته سيبلا «Sybella» ، فعرف ببودوان (أو بلدوان) الخامس «Baudouin V» . وكان صغيرا فتولى الوصاية عليه أمير طرابلس الفرنجى ، الذى يسميه العرب القومص الصنجيل

ريموند «Comte Raymond III : de Saint Agilles» فجدد ريموند الهدنة مع صلاح الدين فى سنة ١١٨١/٥٧٧ .

هذه الهدنة نقضها أحد الفرسان فى مملكة بيت المقدس المسمى رينودى شاتيون «Renaud de Châtillon» أو أرولد «Arauld» ، الذى سماه العرب البرنس أرناط فقد كان هذا الفارس من أشهر فرسان هذه المملكة ، يملك أهم قلاعها فى صحراء النقب المجاورة لمصر ، وبخاصة كرك - المعروفة بالكرك - القائمة على قمة جبل تحيط بها أودية بطرف الشام شرقى البحر الميت ، فكانت تعترض طريق مصر الى الشام ، ولا يمكن أن تعبره قافلة الى مصر أو بالعكس حتى تمنعها . وكان نور الدين يغير عليها باستمرار ، ليبقى على صلته بجيشه فى مصر ، ويريد من صلاح الدين أن يشترك معه فى أخذها كما ذكرنا .

ولكن صلاح الدين عمل من ناحيته - منذ استقر فى مصر - على أخذ قلعة أيلة فى سنة ١١٧١/٥٦٦ ، وهى من حصون إمارة الكرك القوية وتقع على شاطئ البحر الأحمر « القلزم » فى أول الشام ، وتسيطر على طريق مصر البرى الى الحجاز ، عبارة عن محطة للقوافل وميناء غطته الرمال ، وإن عرفت أيضا بعقبة أيلة لوجود معبرة على جبل بين أيلة والأرض المجاورة لها بنيت زمن الطولونيين ، وغلب اسم العقبة على الاسم القديم فى وقتنا . وكان النبى قد فرض على أساقفة أيلة الجزية فى عام ٦٣٠/٩ ، وبقيت فى أيدي المسلمين الى أن جاءها فرنجة الكرك واستولوا عليها ، وأقاموا فيها قلعة ، وحصنوا جزيرة صغيرة أمامها . فكان بسبب سيطرة الفرنجة على أيلة أن تحول طريق حج المسلمين من مصر الملاصق للبحر الأحمر ، الى قوص وسط الصعيد ، ومنها الى عيذاب - بليدة على البحر الأحمر - ومنها بالمراكب الى جدة .

فاستولى صلاح الدين على أيلة بعد حصارها من البر والبحر ، حيث حمل مراكب خفيفة على ظهور الجمال وألقى بها في البحر الأحمر . وكانت أغلب المراكب التي تستخدم في هذا البحر خفيفة تعرف بالجلاب مفردها جلبة ، لا يدخل فيها مسمار البتة ، لأن مياهه تأكلها ، وإنما هي مخيطة بالجمال . وقد حاول أمير الكرك استعادة أيلة ، بأن أقام عسكره بعض الوقت في تبوك بجوارها سنة ١١٨١/٥٧٧ ، ولكن حامية المسلمين فيها صدتهم ، فكان يهاجم القوافل الذاهبة لثمونها . وقد كان خوف صلاح الدين من نور الدين سببا في أنه لم يشترك في الاغارة معه على الكرك ، ولكنه أغار عليها بمفرده حتى لا يفضبه . وبعد موت نور الدين عاد الى الاغارة عليها بشدة ، وكان يتوق الى الاستيلاء عليها ، ليحفظ حرية تحركاته بين مصر والشام .

وعلى الرغم من عقد صلاح الدين الهدنة مع مملكة بيت المقدس ، فإن أمير الكرك عاد الى الهجوم على القوافل المارة بين مصر والشام ، كما أنه انشأ مراكب خفيفة وحملها على الجمال ، ودفعها في البحر مشحونة بالمقاتلة ، الذين أخذوا يهاجمون الحجاج المسلمين بميناء عيذاب في سنة ١١٨٢/٥٧٨ ، وأتوا فيها بحوادث شنيعة : فأخذوا مركبا كان يأتي بالحجاج من جدة ، ومركبين كانا مقبلين بتجارة من اليمن ، وأحرقوا المؤن التي كانت معدة لميرة مكة والمدينة ، وقتلوا في البر قافلة حجاج كبيرة آتية من قوص . وبعد ذلك هاجموا ساحل العرب ، وكانوا عازمين على دخول مدينة الرسول ، وإخراج جسده الشريف من القبر . فلما سمع صلاح الدين بذلك ، أسرع بإرسال المراكب من مصر والاسكندرية الى البحر الأحمر مشحونة بمتطوعة منهم بعض المغاربة ، فلاحقوا بالعدو وأطلقوا سراح الأسوريين من عيذاب ، ثم ذهبوا الى ساحل العرب وأدركوهم وأسروهم وهم على مسافة يوم واحد من المدينة .

وتصادف ذلك مع أشهر الحج ، فسيق بعض الأسرى منهم الى عني للتضحية بهم ، كما أرسل بعضهم الى مصر ، حيث يصف لنا الرحالة ابن جبير - وهو شاهد عيان - دخول أسرى الفرنجة الى مصر في يوم مشهود : فقد تجمع عدد كبير من المصريين على جانبي الشوارع لمشاهدتهم وهم راكبون على الجمال ، ووجوههم الى اذنانها ، وحولهم الطبول والأبواق .

كذلك خرج صلاح الدين من القاهرة في سنة ١١٨٢/٥٧٨ ، حيث لم يعد بعدها الى مصر أبدا ، وقضى بقية حياته مجاهدا في بلاد الشام الى وقت وفاته . وكان قد خرج بقصد الاغارة على حصون الفرنجة ، وبخاصة امارة الكرك ، فقصدها بالغارة كره بعد أخرى وأوشك على أخذها في إحدى الغارات ، حتى اضطر أمير الكرك الى طلب الصلح ، فهادنه لانشغاله وقتذاك بحروبه مع الزنكيين ، فعادت القوافل تتردد بين الشام ومصر بدون عائق .

الواقع ان جهاد صلاح الدين ضد الفرنجة ، لم يقف عند غاراته عليهم في البر ، وإنما أيضا في البحر . وقد بذل في سبيل ذلك جهدا رائعا ، ولا سيما أن الفرنجة كانوا يحتلون ساحل الشام كله ، وكان الأسطول الذي وجدته في مصر ، قد أهمل شأنه في آخر أيام الفاطميين ، مما هيأ للفرنجة الفرصة للهجوم على موانئ مصر ، مثل : دمياط والاسكندرية وتنسييس ، التي أغاروا عليها في سنوات ١١٧٥/٥٧١ و ١١٧٧/٥٧٣ و ١١٨٠/٥٧٦ .

فأفرد صلاح الدين للأسطول ديوانا خاصا عرف : « بديوان الأسطول » ، ليقوم بالإشراف على عمليات بناء المراكب وتجهيزها ، ودفع نفقة العاملين عليها ، وخصص لذلك بعض مصادر المال من الخراج والزكاة والاقطاعات وغير ذلك ، كما عين أشجارا لاتحصى

من السنط في البهنساوية والأشمونين والأسيوطية والأخيمية والقوصية . فعاد النشاط الى دور صناعة المراكب في مصر والقاهرة ، وهي التي أحرقت أثناء حصار الفرنجة أيام شاور ، كما أمر بعمارة أسطول الاسكندرية . وقد جعل صلاح الدين الخدمة في الأسطول بالإجبار ، اذ أصدر أمرا بأخذ الرجال للخدمة فيه . وبذلك تضاعف الأسطول في عهده ، وبلغت قطعه الرئيسية ستين شينيا « أو شونة » ، وهي مراكب طوال مزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم ، مع أنها لم تكن تتعدى عشر شوانى آخر أيام الفاطميين .

فكان الأسطول المصرى يخرج للغزو والكشف ، ويقدر الناس جهاد المقاتلة فيه ، ويتبركون بدعائهم ، ويسمونهم : « المجاهدون في سبيل الله ، والغزاة في أعداء الله » . ففي سنة ١١٧٦/٥٧٢ ، أغارت أساطيل الاسكندرية ودمياط ، وجاءت بالأسرى ، وفي سنة ١١٧٨/٥٧٤ ، أغار الأسطول على عكة « عكا » ، ونطح المراكب الموجودة في الميناء فحطمها : مما لم يعهد مثله من أسطول اسلامى من قبل ، كما أنه في سنة ١١٨٤/٥٨٠ ، خرج الأسطول للغارة وكان به عدد كبير من الحارايق واحدا حراقة ، وتستعمل في حرق سفن العدو ، اذ كانت مزودة بالنفط الذى يرمى بالمنجنيقات أو بالسهام أو فى القوارير .

وبعد أن اطمأن صلاح الدين الى اتحاد مسلمى الشرق بزعامته بقبول أمراء الزنكبين الخضوع له ، والمحاربة معه اذا دعاهم كما كانوا يفعلون أيام نور الدين ، نجده يتوجه الى قتال الصليبيين بعزيمة لا تلين . ويبدو تحمسه للجهاد من قوله فى احدى مكاتباته للخليفة . انه يود أن تعود الكنائس مساجد ، والمذابح معابد للمسلمين ، والصليب المرفوع خطبا من المواقد ، والناقوس الصاهل

أخرس . وكان فى أثناء حصاره مدن الجزيرة ، قد نذر ان خلصه الله من مرضه ، أن يصرف بقية عمره فى الجهاد ، ويقوم بفتح بيت المقدس .

ولحسن الحظ أن همة صلاح الدين اتجهت الى تخليص فلسطين أو فلسطين ، وهي الأراضى الواقعة بين الشام ومصر ، ونص القرآن على أنها أرض مباركة فى قوله : (الأرض التى باركنا فيها للعالمين) ، فقد كانت قصبتها مقدسة للمسلمين ، عرفت لهم ببيت المقدس أو القدس أو حتى بالمسجد الاقصى الذى ورد ذكره أيضا فى القرآن : فيها وجدت الصخرة المقدسة ، وهي حجر لونه أزرق ، لم يطوها أحد برجله أبدا غير أقدام اسماعيل ، الذى ينسب اليه العرب ، لما مشى عليها وهو طفل ، فهي فى قداستها تشبه الحجر الأسود بمكة . ثم انها أول قبلة للمسلمين قبل أن تحول القبلة الى الكعبة ، وموضع الاسراء بنبى الاسلام بأن رفعه الله منها الى السماء ، لذلك اعتبر المسلمون مدينة القدس ثالث بيوت الله فى المكانة بعد مكة والمدينة . وقد كان المسلمون اذا جاء موسم الحج ، يذهبون اليها اذا لم يستطيعوا الذهاب الى مكة ، ويضحون هناك كما هي العادة ، ويزورون بيت لحم بليدة مجاورة ، ويصلون فى مسجدها الذى أقيم على قبرى داود وسليمان ، حتى انه فى بعض السنين حج اليها أكثر من عشرين ألف شخص . كذلك يروى المؤرخون أن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، الذى أنشأ على قبة الصخرة مسجدا فخما ، دعا الى الطواف ببيت المقدس ، ومنع من الحج الى مكة من أجل فتنة ابن الزبير ، ولذا ربما كانت عادة الحج الى بيت المقدس ترجع الى وقته . والخلاصة أن فلسطين التى احتلها الصليبيون أرض مقدسة للمسلمين ، لهم فيها ذكريات دينية لا تقل عن ذكريات النصارى ، تدعوهم الى الجهاد فى سبيل استعادتها ، والانتقام من محتليها .

وساعد على ذلك اختلاف الفرنجة بوفاة ملكهم الصغير بودوان الخامس وانتقال الملك منه الى أمه « سيبلا » « Sybella » ، التي تزوجت فارسا قدم الى الشام من أوروبا ، اسمه جى دى لوسينيان « Gui de Lusignan » ، وهو الذى يسميه المؤرخون المسلمون جوى أو كى أو ابن غتم ، فوضعت التاج على رأسه وأعلنته ملكا على الفرنجة ، وأطاعه رجال الدين وفرسان الاسبتارية والداوية . فجر ذلك الى عدا بينه وبين أمير طرابلس - القمص - الذى كان يطمح فى أن يكون ملكا للفرنجة ، لتضحياته الكثيرة فى سبيل قضيتهم : فقد كان أمضى فى أسر نور الدين اثنتى عشرة سنة ، لولا أن أطلقه كمشتكين لقاء فدية كبيرة ، ليحارب به صلاح الدين ، كما أن عمورى - مرى - كان قد اختاره وصيا على ابنه بودوان الرابع ، وبقي فى الوصاية أيضا على بودوان الخامس بعده كما ذكرنا . فما كان من أمير طرابلس ، الذى كانت تنقصه صفات الديبلوماسية ، الا أن حث صلاح الدين على قصد ملك الفرنجة . ففرح صلاح الدين بهذه الفرصة ، ليحقق ما تمناه فى رسائله للخلافة العباسية من استخلاص الأراضى المقدسة ، فرد على أمير طرابلس يعده بأن يجعله ملكا للفرنجة قاطبة ، وأطلق بعض أسراه عنده ، ليقنعه بحسن نيته نحوه . فيقول ابن الأثير : « وكان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم ، واستنقاذ البيت المقدس منهم » .

ويحدد عماد الدين الكاتب هجوم صلاح الدين فى فلسطين بسنة ١١٨٧/٥٨٣ ، وسماه عودة الى فتح الشام ، واعتبره أفضل من فتحه الأول ، بسبب أن المسلمين كانوا قد وهنوا . وقد جمع صلاح الدين مجاهدين من جميع بلاد المسلمين ، وبخاصة عساكر الجزيرة ومصر والشام ، وإن لم يقم بالغزو - حيث كان يقيم بالشام كما ذكرنا - الا عندما وصل العسكر المصريون ، حيث يبدو

أن المصريين أقبلوا على الجهاد معه ، وأنهم أصبحوا قوة هائلة فى حروبه مع الفرنجة . فبدأ بالاغارة على قلاع مير الكرك - أرناط - لوجودها فى طريق وصول الأمداد من مصر ، ولأن هذا الأمير كان قد عاد الى الاغارة على قوافل المسلمين ، فهاجم صلاح الدين قلعتى الكرك والشوبك بشدة لم تعرف قبل . كذلك هاجم طبرية وفتحها ، وهى بليدة مطلة على البحيرة المعروفة باسمها بجوار القدس ، مع أنها كانت فى غاية الحصانة ، لها سور وحصون وسط البحيرة ، وإن لم يتمكن من أخذ قلعتها .

وقد قدر الصليبيون خطر هجمات صلاح الدين هذه المرة عليهم ، وضرورة اتحادهم فى محاربتة ، لوقف خطره . فجمعوا مشورة من فرنجة الشام وأنبوا أمير طرابلس على موقفه الودى من صلاح الدين ، وهددوه بالحرمان وفسخ زواجه ، مما جعله يقبل الانضمام اليهم . ودفعه الى ذلك أيضا استيلاء صلاح الدين على طبرية سابقة الذكر ، وكانت سكنه منذ زواجه من صاحبته أيام وصايته على مملكة الفرنجة . وقد كان أمير الكرك أشد أمراء الفرنجة ثقة فى النصر على المسلمين ، فقال : « ان النار لا يضرها كثرة الحطب » . ولكن لا يبدو أن أمير أنطاكية اشترك معهم ، وهو بوهمند الثانى « Bohémond II » أو Boemund - البيمند أو بيمند - مع أنه حسب قول المقرئى ، كان تابعا للملك بيت المقدس ، فسماه : أبرنس ملك الفرنج بأنطاكية ، ربما لبعده ووجود صلاح الدين فى طريقه ، وإن كان من جهته دائم الاغارة على مراكز المسلمين المجاورة لامارته .

فخرج ملك الفرنجة وفرسانهم ، بجيوش عديدة بلغت خمسين ألفا الى طبرية يحملون شعارهم المقدس صليب الصليب أو الصليب الأعظم ، وهو عبارة عن صليب من الخشبة التى صلب

عليها المسيح ، محلى بالذهب والجوهر . فلما قاربوها رحل صلاح الدين عنها ، ليستدرجهم الى مكان صخرى مجاور ، بعد أن سيطر على مشارب المياه ، وجعل الأردن وراه . فتقابل الجيشان عند قرية حطين أو حطين ، وقاتل المسلمون بشدة وهم يصيحون صيحة رجل واحد : الله أكبر ، وعلى رأسهم صلاح الدين يطوف بينهم ، ويحرضهم على القتال . فلما أحس أمير طرابلس بفوز صلاح الدين انسحب الى بلده ، حيث لم يلبث الا أياما قلائل حتى مات . وحين حمل المسلمون على خيمة الملك وتمكنوا من اسقاطها ، أسرع الفرنجة جميعا بالتسليم . فيقول ابن الأثير عن انتصار المسلمين : « فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا أحدا ، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحدا » .

مما لا شك فيه أنه لم يحدث أن شفى المسلمون غليلهم من الفرنجة منذ مجيئهم الى الشام مثل هذه المرة ، بحيث سموا موقعة حطين : بوقعة حطين المباركة . ويقول السياسي الانجليزى المعروف تشرشل « Churchill » ، فى مذكراته عن عظماء التاريخ ممن أسهموا فى الحروب الصليبية ، ان سبب نصر المسلمين راجع الى كثرتهم العددية . ولكننا نظن أن نصرهم راجع الى تنظيم قواهم على يد صلاح الدين ، واتحاد هدفهم بالعمل على استنقاذ أراضيهم المحتلة ، على عكس الصليبيين ، الذين أصبحوا عناصر يسودها الاختلاف ، ليس لها أهداف محددة غير الطمع والتنافس فيما بينهم . هذا فضلا عن التكتيك الحربى الرائع الذى استخدمه صلاح الدين ، بفهمه للأرض التى يحارب عليها ، بحيث أن الفرنجة بلغوا من العطش حدا لم يستطيعوا معه الحركة ، فسلموا وعلى رأسهم ملكهم وأمرأؤهم .

وبعد هذا الطفر العظيم ، جلس صلاح الدين لعرض الأسرى الكثيرين ، وهم يتهدون فى القيود أمامه كالسكارى من العطش ،

حيث كان العسكرى المسلم يربط فى الجبل الواحد ثلاثين أو أربعين منهم . فلما أحضر ملك الفرنجة أمامه ، أجلسه على يمينه ، وهدأ من روعه ، وأعلمه عن طريق الترجمان أن عادة الملوك جرت على ألا يقتل الملك ملكا مثله ، وقدم له ماء مثلوجا - وكان صنع الثلج معروفا عند المصريين ، وكانوا يأخذونه معهم فى قيظ مكة وفى الحروب - ثم أخذ فى تأنيب أمير الكرك لسخريته من نبي الاسلام ، وقال له : « ها أنا انتصرت لمحمد » . ولما كان صلاح الدين قد نذر دمه ان وقع فى يده لنقضه الصلح معه ، رفض أن يشربه الماء ، وضربه بالسيف على كتفه ، وقطع رأسه وأطعم جثته للكلاب . كذلك عمل على ضرب أعناق فرسان طائفتى الداوية والاسبتارية على ألا يبقيه فى الأسر ، لأنهم كانوا يمثلون التعصب المسيحى ، اذ كان معظمهم من رجال الدين المحاربين ، بحيث قال أبو شامة عنهما : « انه ما جرت عادتهما بالمفاداة ، ولا يقلعان عن المعادة ، ولا يخدمان فى الأسر » ، وان استثنى صلاح الدين منهم مقدم الداوية ، الذى يبدو أنه شفع له ملك الفرنجة . وكان فى حضرته جماعة من أهل العلم والمتصوفة ، فسأل كل واحد منهم فى قتل واحد ، فمنهم من قبل ومنهم من رفض أن يلمح يده بدماء الأسرى . ثم سير الأسرى الباقين الى دمشق ليودعوا فى سجونها ، ومعهم شعارهم المقدس صليب الصليبوت منكسا ، ولكنه بعد ذلك أطلق سراح أغلبهم بخاصة أكابرهم بعد أن افتدوا أنفسهم بالمال أو بتسليم قلاعهم ، على شريطة ألا يعودوا الى قتاله ، كما باع بعضهم حتى ان أحد الفقراء بدمشق اشترى أسيرا بنعل . وقد عوتب صلاح الدين على بيعه الأسرى ، فقال : « أردت هوانهم » .

ومن ثم كانت هذه الوقعة العظيمة مقدمة لانتصارات حربية هامة على الفرنجة الشام ، بسبب أنهم فقدوا معظم رؤسائهم . فقد كانت سببا فى فتح بلاد الساحل ، ويقصد بها البلاد الواقعة

على ساحل الشام ، مثل : عكة (أو عكا) وغزة وحيفا وصيدا
وبيروت وعسقلان . كذلك فتح بعض الأماكن القريبة من القدس ،
مثل : طبرية والرملة والخليل وبيت لحم ونابلس (أو نابلس) ،
وفى هذه الأخيرة قاتل المسلمون فرقة من اليهود كانت تدافع عنها
مع النصارى ، فقتلهم المسلمون عن بكرة أبيهم .

وبعد ذلك ذهب لحصار القدس على رأس عساكر مصر ،
كما يذكر عماد الدين الكاتب ، مما يبين أن صلاح الدين أصبح
يعتمد عليهم فى المعارك الحاسمة ، ولا سيما أنهم كانوا قد تقاضوا
فى الدفاع عنه لما أخذه الفرنجة أيام الفاطميين فى سنة ١٠٩٨/٤٩٢ .
ومع أن جى كان فى الأسر ، فإن البطريك هرب الى القدس من
حطين ، وأصبح مركزه فيه أقوى من ملك . فلما جاء صلاح الدين
القدس استمر يطوف بأسواره خمسة أيام لينظر من أين يأتى ،
لحصانته ومناعته ، ولأنه كان على قمة جبل ، والأرض المحيطة به
غير مستوية ، فنصب عليه منجنيقات كثيرة من ناحية الشمال ،
وتحت ستار رميها الشديد ، تمكن جنده من الوصول الى الخندق ،
ونقب السور . عندئذ طلب البطريك الأمان لفرنجة القدس ،
فرفض صلاح الدين ، لرغبته فى فتحه عنوة بحد السيف بقصد
الانتقام مما فعله الفرنجة بالمسلمين من القتل والسلب لما ملكوه .
وبعد ذلك ، لما هدد الفرنجة بقتل أسارى المسلمين لديهم ، وبقتاله
قتالا شديدا ، قبل منحهم الأمان بناء على مشورة قواده . وقد
اشتراط صلاح الدين عليهم أن يرحلوا من البلدة فى أربعين يوما ،
وأن يتركوا خيلهم وأسلحتهم ، وأن يدفع كل رجل عشرة دنانير ،
وكل امرأة خمسة ، وكل صغير دينارين ، ومن امتنع عن دفع المال
يصبح من رقيق المسلمين . ونحن لا نجد شروطا لليهود ، ربما
لأن الفرنجة لم يكونوا يسمحون ببقائهم معهم بالقدس ، أو تقليدا
لما حدث أيام عمر بن الخطاب ، الذى منح الأمان للنصارى دون

اليهود . وبذلك تحققت معجزة استرداد القدس على يد عسكر
مصر من دون عسكر المسلمين ، بحيث يقول عماد الدين الكاتب :
« ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الأمصار » .

وشرع الفرنجة فى الخروج من القدس ، وكان عددهم كبيرا
يبلغ مائة ألف ، فكانوا يذهبون الى صور على الخصوص ، وهى
ميناء لهم على البحر الأبيض بجوار بيروت . وتصف لنا المراجع
العربية حسنات صلاح الدين نحو فرنجة بيت المقدس فى محنتهم ،
فكان يسمح لكثير منهم بالرحيل دون دفع الفداء ، كما ترك
البطريك يأخذ نفائس الكنائس ، دون أن يعترض على ذلك .
وتؤيد بعض المراجع بما فيها الصليبية حسن معاملته صلاح الدين
لزوجات كبار أسراه فى حطين ، ولا سيما زوجة الملك جى ،
فتركهن يرحلن بكل ما يملكنه من جوار وخدم ومال ، وأعادهن
الى أزواجهن . وعلى النقيض أساء التصرف مماليكه الكرد والترك ،
الذين أقامهم بأبواب المدينة ، فلم يراعوا الأمانة ، وقبلوا الرشوة .
وأخذوا الأموال لأنفسهم . ومع ذلك بقى آلاف من الفرنجة من
رجال ونساء وأطفال ، لم يتمكنوا من دفع الفداء ، فأصبحوا من
رقيق المسلمين . كذلك قبل صلاح الدين بقاء النصارى الشرقيين ،
على أن يدفعوا الجزية ويدخلوا فى ذمة المسلمين ، وهذا يدل على
أن صلاح الدين لم يكن يحارب ديناً ، وإنما يحارب الغزاة الأجانب .

وقد كان تسليم القدس ليلة الاسراء يوم الجمعة ٢٧ من
رجب سنة ٥٨٣/٢ من ديسمبر سنة ١١٨٧ ، بعد أن بقى فى
أيدى الفرنجة احدى وتسعين سنة ، حيث عرف فتحه : بالفتح
الأكبر . ولم يرض صلاح الدين أن يدخله الا ومعه مندوبون من
أطراف البلاد الاسلامية ، كما لم يتخلف شخص ذو حيثية من
المثول معه ، وبخاصة العلماء والمتصوفة الذين كان صلاح الدين

يميل اليهم ، فدخلها ومعه زهاء عشرة آلاف عمامة • فجلس صلاح الدين للتهنئة وحوله الشعراء وأكثرهم من المصريين ، ينشدون قصائد المديح ، التي عرفت بالقدسيات نسبة الى يوم فتح القدس • وقد أرسلت كتب النصر بفتح القدس الى جميع بلاد الاسلام معظمها من انشاء عماد الدين الكاتب ، كما أخذ رسل ملوك المسلمين تتوافد تباعا للتهنئة • وبتسلم المسلمين القدس ، نحقق حلم نور الدين منذ أن أرسل حملاته على مصر ، ولكن على أيدي صلاح الدين الذي سمي نفسه : « منقذ بيت الله المقدس من أيدي الكافرين » •

وعلى النقيض لا يبدو أن الامام الناصر خليفة الاسلام بالعراق قد سر بفتح القدس ربما حسدا لصلاح الدين ، مع أنه لم تكن له سلطة حتى على بغداد • وقد ظهر حسده لصلاح الدين من قبل حينما أرسل اليه يعاتبه في تلقيب نفسه بالملك الناصر مع أنه لقب أمير المؤمنين في سنة ١١٨٦/٥٨٢ ، فأرسل صلاح الدين يعتذر اليه بأن الخليفة المستضيء أباه قد أبقاه له ، وأنه لا يعدل عن لقب لقبه به خليفة ، اذ كان تلقب به أيام الفاطميين كما ذكرنا • ولكن المراجع المعاصرة تذكر أن سبب غضب الخليفة الناصر ، راجع الى أن صلاح الدين أرسل كتاب النصر مع نجاب - أي حامل البريد على النجب - وليس مع شخص له حيثة • فما كان من صلاح الدين الا أن بعث الى الخليفة بخطاب عتاب ، يذكر فيه قضاءه على الخلافة الشيعية ، وفتح لبيت المقدس • فرد الخليفة على صلاح الدين ردا شديدا ، وقال : « يفتخر علينا بالقدس ، وهل فتحها الا بعساكر الديوان ، وتحت راياته » • وقد سعى عماد الدين الكاتب بدبلوماسية الى تهدئة الجو ، بأن كتب الى الخليفة على لسان صلاح الدين يعتذر عما ورد في الكتاب الأول ، الذي هو من انشاء كتاب الديوان • كذلك يبدو الحقد المكبوت في العراق في

اصطدام حجاج العراق بحجاج الشام ومصر بعرفات ، حيث قتل من هؤلاء جماعة من بينهم ابن المقدم ، الذي كان سلم دمشق ، فضمه صلاح الدين الى امرائه ، وعينه أمير حجاج الشام ومصر من قبله لسنة ١١٨٨/٥٨٣ ، بحجة أن شرف ضرب الطبول «كؤسات» تكون لندوب حجاج الخليفة من العراق قبل غيره • وقد تأكدت الوحشة من جديد بين صلاح الدين والخليفة بسبب هذا الحادث ، رغم استنكار الخليفة له استنكارا شديدا • ولكن لما عاد القتال ضد الفرنجة عادت الأمور الى مجراها ، وأرسل صلاح الدين الى الخليفة تاج ملك الفرنجة وهدايا وتحفا ، وكان يكثر من اظهار الولاء ، فيصف نفسه : بالملوك والخدام والمولى والعبد •

وبتسليم بيت المقدس أعاد صلاح الدين لمساجده طابعها الاسلامي وجدها ، بعد أن غير الفرنجة فيها وحولوها الى كنائس ، ولدينا نقوش من عهده تدل على تجديدها • فهو الذي أمر باظهار الصخرة المقدسة ، التي كان الفرنجة قد فرشوا الرخام فوقها لحفظها ، بسبب أنه كان يقطع منها قطع صغيرة للبركة أو لبيعها ، فلما ظهرت قام بغسلها وهو يبكي • كذلك أمر بخلع الصليب النحاس الكبير المحلى بماء الذهب ، الذي أقيم على قبتها ، ووضع مكانه هلالا بين حماس المسلمين وفرحهم ، وأرسل الصليب الى بغداد ليداس فيها بالنعال ، ويدفن تحت أسوارها • وقد أعاد المسجد الأقصى الى حالته الأولى بعد ان كان الفرنجة حولوه الى كنيسة ، وبنوا فيه نزلا لفرسانهم الداوية ومخازن ، فأمر بهدم ما أضيف اليه وأزال التماثيل والصور ، ووضع فيه القناديل ، وفرشه بالبسط ، وحمل اليه منبرا كان نور الدين أمر بصنعه بحلب ، لينصبه فيه اذا ما فتح القدس على يديه • فاقامت في المسجد الأقصى صلاة الجمعة يوم الجمعة التالي لدخول صلاح الدين القدس ، فكان الخطيب يعدد مآثر البطل الفاتح ويدعو له ،

والمصلون يؤمنون على دعائه . وقد أشير على صلاح الدين بهدم كنيسة القيامة انتقاما لما فعله الفرنجة بمساجد المسلمين ، فلم يوافق لأن عمر بن الخطاب أبقاها لما تسلم القدس ، الا أنه أمر بغلقها وكسر أجراسها وإزالة صلبانها ، ثم فتحها بعد مدة ، وقرر على من يرد إليها من الفرنجة مبلغا من المال ، ولكنه حول كنيسة غيرها إلى مدرسة ، وأخرى إلى رباط للصوفية . فكان تصرف صلاح الدين السمع نحو كنيسة القيامة المقدسة ، يخالف تصرف الفرنجة المشين نحو مسجدي الصخرة والأقصى .

وبعد فتح القدس ، بلغ من حماس صلاح الدين للجهاد أنه فكر في طرد الفرنجة من الشام . وقد أصبح النصر حليفه في هجومه عليهم ، بحيث أن أغلب قلاعهم فيه خضعت له ، مما لم يسمع بمثله من قبل . فنذكر من جملة انتصاراته الرائعة ، مثل : لاذقية وجبله والكرك والشوبك وصفد وكوكب وانطرسوس . . . ولم يبق بيد الفرنجة غير أنطاكية وطرابلس وصور فيقول صلاح الدين في إحدى رسائله إلى أخيه باليمن : « ان بلاد الشام اليوم لا تسمع فيها لغوا ولا تأثيما الا قليلا سلاما سلاما » .

ولكن فوت على صلاح الدين النصر التام سوء تصرف اختلف المؤرخون في مصدره . فتارة ينسبونه إلى صلاح الدين - ومنهم ابن الأثير ، الذي كان هواه مع الزنكيين - بتركة فرصة النصر تفوت بتريته وقتا طويلا في القدس ، وبإسرافه في منح الأمان لأهل مدن الفرنجة المستسلمة ، الذين كانوا يأوون إلى المدن الباقية لهم على الساحل ، مما جعل هذه المدن تقاوم عسكر المسلمين . وتارة أخرى ينسبونه إلى عسكره الغريب عن الشام ومصر من أهل البلاد الشرقية بخاصة من ديار الجزيرة ، الذين كانوا غالبا

ما يملون الجهاد ، ويسعون إلى العودة إلى أوطانهم ، مما أتاح للعدو أن يستمر في القتال . على كل حال عاد الفرنجة إلى تحدى المسلمين ، مع أن هؤلاء كانوا على وشك الرمي بهم إلى البحر .

ولعل مظهر عودة الفرنجة إلى المقاومة ، هو فشل صلاح الدين في أخذ مدينة صور بلبنان ، المعروفة للأوربيين باسم (Tyr) ، وهي ميناء مشهور تمتد في البحر كالكف . وكان الفرنجة قد فتحوها من الفاطميين أيام الأمر في سنة ١١٢٤/٥١٨ ، وبنيوا عليها سورا يحيط بها من البر . كما حصنوا مدخلها بسلسلة تشد بين برجين ، فضلا عن أن ميناءها كان يستطيع استقبال المراكب الكبار ، حتى ضرب بها المثل في الحصانة .

وكانت صور من أملاك أمير طرابلس - القمص - الذي أخلاها من جنده لما هرب من حطين ، حيث لم يلبث أن توفي . فاستعد أهلها لتسليمها لصلاح الدين ، لولا أن جاءهم فارس شجاع ، من أسرة نبيلة معروفة بمحاربتها للمسلمين اسمه كونراد دي مونتفرات «Conrad de Montferrat» . ولم يكن يعلم بهزيمة الفرنجة بالشام ، وكاد يؤخذ في عكة من حاميتها المسلمة ، لولا فراره إلى صور ، التي لم يكن صلاح الدين قد حاصرها بعد ، لانشغاله بغيرها من الحصون . فقرر أهل صور تولية كونراد عليهم ليحفظها ، فاشتراط عليهم أن يملكوها مدينتهم ، واتخذ لقب مركيز «Marquis» ، فاشتهر للعرب بالمركيس أو المركيش ، وإن سماه ابن الأثير بالشیطان لكفائه ومكره قبذل كونراد همة كبيرة في تقوية تحصيناتها ، فحفر حولها خندقا عميقا ، وعمل لها أسوارا جديدة ، بحيث أصبحت معقلا منيعا للفرنجة ليس من السهل اقتحامه .

فلما جاءها صلاح الدين بعد حطين ، استعظم تحصينها ، فتركها لرغبته القوية في فتح بيت المقدس . وقبل أن يفادها عرض على كونراد تسليمها لقاء إطلاق سراح أبيه غليوم دي مونتفerrat Cuillaume de Montperrat الذي كان من أسراه في حطين . ولكن كونراد أجاب بأنه ليس مستعدا للتضحية بصور من أجل والده المسن ، ومع ذلك فإن صلاح الدين أطلق سراح أبيه وأرسله إليه . وقد كان من المنتظر أن يعود صلاح الدين سريعا لفتح صور ، بعد أن فتح بيت المقدس ، حيث كان قواده في مدن الساحل المجاورة لصور يستحثونه ، ويكتبون إليه : « الفرصة تدرك بالحث ، وتفوت باللبث » . ولكنه تريت وقتا لشغله بنصره العظيم ببيت المقدس ، فلما عاد لحصار صور وجدها صعبة المنال بمن جاءها من الفرنجة الكثيرين الهاربين من القلاع ، وبخاصة من فرنجة بيت المقدس الذين كان منحهم الأمان ، كما جاءت مراكب بيزية وجنوية والمانية وفرنسية لشد أزر حاميتها ، بحيث كانت هذه المراكب تخرج لتقاتل المسلمين على الساحل . فأقام حول أسوار صور عددا كبيرا من المنجنيقات الطوال والصغار التي ترمى بالأحجار والنار ، كما استخدم الأبراج والدبابات بقصد نسف الأسوار . كذلك طلب مراكب الاسطول المصري الموجودة بعكة ، فجاءته منها عشر شوانى كبار ، فحصر بها صور من البحر أيضا ، بحيث منعت مراكبها من الخروج ، واجبرتها على البقاء في الميناء . ولكن مراكب الفرنجة دهمت فجأة مراكب المصريين في الليل ، وادخلت خمسة منها الى صور ليقتل رجالها امام أعين جيش صلاح الدين المحاصر ، وان قيل انها دخلت بالخديعة لتتسلم البلد ، أما الخمس الباقية فانها لما حاولت الفرار لحقتها مراكب الفرنجة وأخذتها . وقد نسب فشل المراكب المصرية الى سوء تدريب رجالها ، الذين كانوا كلهم من بحرية مصر كما يذكر

النص . وقد شجع ذلك فرنجة صور على الخروج لقتال جيش المسلمين ، الا أنهم ردوا وهزموا . ولكن البرد اشتد ، وضجرت العسكر من الحصار الطويل بعد تعودهم الفتح السريع ، فاضطر صلاح الدين تحت الحاحهم الى رفع الحصار في شوال ٥٨٣/١١٨٧ . ويلوم ابن الأثير صلاح الدين ، فيقول : لم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين . فانه جهز اليها جنود الفرنج ، وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكة وعسقلان والقدس .

وفوق ذلك ، كان صلاح الدين قد ذهب لمحاصرة أمير انطاكية - البيمند - الذي أصبح من أعظم الفرنجة شأنا : بتسليم أهل طرابلس مدينتهم اليه بعد موت أميرهم - القمص الذي لم يخلف ولدا ، وبقضاء صلاح الدين على مملكة بيت المقدس ، التي كان يعتبر تابعا لها . وقد كان في نية صلاح الدين القضاء عليها نهائيا ليعوض فشله أمام صور ، ولا سيما وأن أمره انتهى بعد أن استولى على أغلب حصونه في نواحي انطاكية وطرابلس ولكن أمير انطاكية أسرع بطلب الهدنة ، فحث صلاح الدين عسكره الغريب ، الذين سئموا القتال ورغبوا في الراحة على عقد الصلح . فعقده صلاح الدين معه لمدة ثمانية أشهر في عام ٥٨٤/١١٨٨ ، على غير رغبة منه ؛ خوفا من تقويته بهذه الهدنة ، واشترط عليه أن يطلق من عنده أسرى المسلمين .

ولقد أحييت مقاومة صور آمال الفرنجة في أوروبا في التشبث بالساحل الشامى ، ولا سيما أن البطريك الذي كان بيت المقدس ، وتركه صلاح الدين يرحل عنها بالأمان ، دخل بلاد الفرنجة بأوروبا « أفرنجة » ، يطوفها جميعا ومعه صورة رجل عربى يضرب المسيح ، ليحثهم على الأخذ بثأر بيت المقدس من

المسلمين • فعمل البابا جريجورى الثامن Cregoire على الدعوة لحرب المسلمين ، وهو خلف البابا اربان الثالث Urbain III ، الذى ربما توفى من أثر سقوط بيت المقدس فى يد المسلمين • ولكن جريجورى لم يلبث أن توفى هو الآخر ، فجاء بعده كليمنت الثالث Clement II ، الذى أمر أساقفته فى كل مكان بالتبشير بحرب صليبية ، وهى ما عرفت بالحملة الصليبية الثالثة • فاشتريت أوروبا كلها فى هذه الغزوة بجميع بلادها وامكاناتها • حتى بنسائها اللاتى جندن فى زى الرجال • فجاءوا لقتال المسلمين على الصعب والذلول برا وبحرا ، مندفعين بالحماس الدينى لعقيدتهم •

وكان أول الوافدين من كبار الفرنجة الملك السابق لمملكة بيت المقدس جى - يسميه أيضا العرب العتيق - وهو الذى كان صلاح الدين قد أطلقه من الأسر ، لقاء حظه فرجة عسقلان على تسليمه مدينتهم الهامة ، وذلك على ألا يعود الى حرب • فنكث جى بوعده ، وأخذ من القسس تحللا من قسمه ، وعاد الى الاراضى المقدسة ، لعله بذلك يكفر عن هزيمته بحطين ، التى ترتب عليها فقدان مملكة بيت المقدس • فلما جاء الى نواحي طرابلس ، التف حوله جماعة من الفرنجة من مختلف الأجناس ، وبخاصة من النورمان ، الذين جاؤوا نجدة لحامية طرابلس ، لحفظها من المسلمين • ولكن وقع نزاع بينه وبين كونراد دى مونتفرات على عرش مملكة بيت المقدس ، وبخاصة أن فرجة الشام كانوا قد عزلوه بسبب هزائمه على يد المسلمين • فضلا عن أن كونراد كان هو الآخر من البيت المالك : فأخوه الكونت غليوم «Guillaume» - المشهور بالسيف السليط - كان زوجا لسيبلا قبل جى ، وأبو بودوان الخامس ، مما جعل من كونراد منافسا خطيرا لجى على عرش مملكة بيت المقدس • فرفض كونراد ان يدخله

صور ، الا أنهما اصطلحا على قتال صلاح الدين ، وترك مسألة العرش يحكم فيها فيما بعد •

وقد بدأوا بعكة أو مدينة عكة (وتكتب أيضا عكا أو عكاء) : أو ما يعرف للأوربيين «Akko» ، وهى بلد قديم ، من أحصن بلاد ساحل الشام ، مشيدة على أرض مرتفعة ، وزاد من حصانتها أن الأراضى المحيطة بها مملوءة بالجبال والوديان • وهذه المدينة فتحها المسلمون فى سنة ٦٣٦/١٥ ، واتخذها معاوية قنطرة للاستيلاء على جزيرة قبرص ، ثم أقام فيها هشام دارا لصناعة السفن ، وان نقلها بعد ذلك الى صور المجاورة • فلما جاء أحمد بن طولون واليا على مصر والشام من قبل العباسيين ، عمل على احاطتها بسور ضخمة ، وشهد سلسلة فى مينائها لمنع المراكب كما فى صور • كذلك بقيت عكة مدينة هامة أيام الفاطميين ، وأقيمت فيها تحصينات فى غاية الاحكام تطل على البحر • فكانت لحصانتها هدفا لمحاولات الفرنجة الاستيلاء عليها منذ مجيئهم الشام ، فقتل أماءها جودفروا وأول رئيس لدولة بيت المقدس ، وان استولى عليها بودوان بعده ، بعد حصارها برا وبحرا فى سنة ١١٠٤/٤٩٧ ، وذلك لاضطراب أحوال الفاطميين فى أيام الأمر • فبقيت فى أيدي الفرنجة حتى فتحها صلاح الدين فى جمادى الأولى سنة ١١٨٧/٥٨٣ ، وان سمح لأهلها بالهجرة منها آمنين الى قلاع أخرى لهم على الساحل ، وبخاصة الى صور • وقد كان استيلاء صلاح الدين عليها حدثا هاما ، لأنها كانت أول ما فتح من مدن الساحل ، كما أنه غنم فيها بضائع كثيرة ، اذ كانت مقصد تجار الفرنجة واليونان وغيرهم من أقاصى البلاد وأدناها ، حتى شبعت فى عظمتها التجارية بالقسطنطينية •

فقام صلاح الدين بتحصينها ، لأن أسوارها هدمت • فأرسل فى استدعاء بهاء الدين قراقوش ليتولى تحصينها ، وهو الذى حصن

القاهرة وبنى قلعتها ، فجاءها ومعه عمال ومهندسون من أهل مصر ، وبعض أسرى الفرنجة ، لتسخيرهم فى مشروعات تحصينها ، كما أحضر أدوات وآلات كثيرة . فكان تحصين قراقوش لأسوار عكة وبروجها ، عملاً معمارياً فنياً ضخماً ، تمكن به من مقاومة الغزاة الأوربيين زهاء ثلاث سنوات ، كذلك استعمل قراقوش فيها الحمام الزاجل ، وبنى له أبراج الخشب ، مما هيا لعكة وسائل البريد السريعة فى عصره . يضاف الى ذلك ، أن صلاح الدين شحنها بمقاتلين كثيرين ، وجلب اليها بعض مراكب الأسطول المصرية ، لترتبط فى مينائها .

فخرج الفرنجة الى عكة فى أعداد كثيرة بقيادة جى فى رجب سنة ٥٨٥ / أغسطس ١١٨٩ ، وسارت مراكبهم معهم بحذاء البحر . ويبدو أن صلاح الدين لم يؤخذ على غرة بمقصدهم عكة ، فقد كان ترك أمام حامية صور « اليزك » ، وهى كلمة فارسية تعنى الطلائع . التى تبهت حامية عكة ، لتكون على أتم استعداد . وكان رأى صلاح الدين أن يقاتل الفرنجة أثناء تقدمهم على عكة ، لأنهم اذا وصلوا اليها لصقوا بأرضها ، ولكن قواده لم يرضوا قتالهم الا متجمعين أمام عكة ، بحجة أن الطريق التى سلكها الفرنجة وعرة لا يسهل قتالهم فيها ، وللاجهاز عليهم دفعة واحدة . ومع ذلك رتب صلاح الدين للفرجة الكمين ، وهى عصابات من الأعراب لتقاتلهم أثناء سيرهم . فكانت نتيجة مخالفة رأى صلاح الدين ، أن وصل الفرنجة الى عكة قبل عسكر المسلمين ، ولا سيما أنهم كانوا ينزلون حولها حتى من البحر ، ف ضربوا عليها حصاراً شديداً من البحر الى البحر ، حتى لم يبق لعسكر صلاح الدين اتصال بها .

وقد كتب صلاح الدين يستدعى العسكر الاسلامى ، الذى كان متفرقا أمام انطاكية وصور وطرابلس ، وعلى سواحل مصر فى

الاسكندرية ودمياط . فأسرع العسكر الى المجرى بأعداد كبيرة من الشام والجزيرة ، وان كان مجيئهم بطيئاً ، عن طريق البر لا البحر كالفرنجة فكانت الحرب بينهم وبين الفرنجة سجالات ، كثيرة الوقوع بين صغيرة وكبيرة ، ومنها اليوم المشهور ، ومنها ما هو دون ذلك . ولعل أهمها وقعة حمل فيها المسلمون على الفرنجة ولصقوا بأسوار عكة ، فأدخلوا فيها من أرادوا من الرجال والأزواد والأموال . كذلك قرر الفرنجة من جانبهم مهاجمة المسلمين قبل أن يتم وصول بقية أمدادهم من مصر ، فهزمهم فى أول الأمر هزيمة شديدة ، وأجبروهم على الفرار فى كل اتجاه ، ووصلوا الى خيمة صلاح الدين نفسها وقتلوا من حولها . ولكن بفضل حماس صلاح الدين ، الذى كان يصيح فى عسكره قائلاً : « ياللاسلام » ، عادوا الى قتال الفرنجة ، وهزمهم بمشاركة حامية عكة ، بحيث قتلوا منهم عشرة آلاف ، فعرفت هذه المعركة : بالوقعة الكبرى . وعلى الرغم من أن صلاح الدين كان من رأيه الاجهاز على قوة الفرنجة ، قبل أن يفتح البحر على حد قوله . فان قواده من الكرد والترك اضطروه للرحيل بعيداً عن عكة ، ليسعدوا عن جو المعركة ، الذى تلوث برائحة موتى الفرنجة الكثيرين ، وطنا منهم أنهم قضوا على الفرنجة نهائياً .

ولكن رحيل عسكر صلاح الدين هيباً الفرصة أمام الفرنجة ، ليعودوا الى حصار عكة من جديد ، بعد أن جاءتهم أمداد كثيرة ، فحاصروها من كل جانب ، وشرعوا فى حفر خندق وعمل سور من التراب ليقبضهم سهام المسلمين . فأسرع صلاح الدين بالمجيء مع ما جمعه من رجال كثيرين من أهل الشام ، وان لم يستقر باله الا لما وصل العسكر المصرى الكثير من السمر وسودان مصر ، أو كما يقول ابن الأثير : المصريين . فكان هم الفرنجة على الحصص محاربة المصريين وكسر شوكتهم ، بحيث أن المصريين وحدهم قتلوا منهم

في إحدى الوقائع عشرة آلاف قتيل . وعلى الرغم من أن الفرنجة جاءهم عدد كبير بعد هذه الواقعة مع المصريين ، ومع شخصية غامضة الجنسية يسميها العرب الكندهري ، وربما يقصد بها كونت كبير «Comte» ، وهو هنري دى شامبين «Henri de Champagne» فان عسكر صلاح الدين صدوهم في كل هجوم .

وقد كان الفرنجة يتفنون في استخدام أدوات الحرب لغير المسلمين ، الذين كانوا يبذلون جهدهم لوقف خطرهما ، فالاختراعات تسائر الحروب دائما . فكان لديهم الآلات الحربية العجيبة والصناعات الغريبة ، منها : أنهم صنعوا أبراجا كبيرة من الأخشاب الطوال والحديد حول أسوار عكة ، حتى علت على منازل المدينة وأسوارها ، وكسوها بجلد البقر وبللوها بالحل والطين لمنع الحريق ، وكانوا قد استمروا في صنعها تسعة أشهر ، فكان مقاتلو الفرنجة يطلقون منها على حامية عكة النار والأحجار والسهم بشدة لم تعرف من قبل . ولكن تمكن أحد متطوعي دمشق من حرقها ، بعد أن عجز عسكر عكة عن ذلك ، إذ كان هذا الدمشقي يهوى تركيب عقاقير النفط ، فرمى بالمنجنيق قدور النفط باردة ، لتبطل الأبراج من كل ناحية ، ثم رمى بالنار فاشتعلت فيها ، فلما أحرقت أرسلت البشائر إلى جميع بلاد المسلمين . كذلك أقام الفرنجة دبابه هائلة يزجج مرآها ، مصنوعة من خشب ورصاص وحديد ونحاس ، مقامة على عجل تسير من داخلها ، لها رأس يقرنين يقال له الكبش ، وهي لا تنقر الأسوار فقط ، وإنما تلقى بالنار أيضا . فتمكن المسلمون من تدميرها بالقاء النار داخلها لما فتح بابها ، فقتل من فيها . وقد كان معظم الفرنجة يرمون بالزنبرك ، وهو آلة في طول الذراع ، طلقتهما للسهم سريعة ، وتخترق رجلين جالسين أحدهما خلف الآخر .

أما عن عسكر المسلمين ، فانهم برعوا في استخدام آلات الحرب : أحصها آلة حديدية تسمى مثلثة لها أحجام مختلفة ، لنشرها على الأرض كالإغلام في وقتنا ، لتعوق تقدم العدو ، بخاصة فرسانه . كذلك أكثروا من استعمال النفط أو النفط ، اعرفوا منه أنواعا مختلفة ، مثل : النفط الأسود أو الزيت ، الذي كان يوجد على ساحل بحر القلزم « الأحمر » يسيل من أعلى جبل ويجمع في خزائن . وقد استخدم صلاح الدين هذا النوع بكثرة في حروبه . والنفط الأبيض أو الطيار وكان يأتي به من العراق ، فكانوا يضعونه في قارورات أو قدور ، ويلقونه بالقوس والسهم والمنجنيق وقد كان عسكر صلاح الدين يستعمل قوسا يشدها رجل واحد ، فترسل عدة سهام مرة واحدة ، بشدة واحدة ، كما أن رمى المنجنيقات أصبح من الدقة بما لم يكن يعرف .

وفي الوقت ذاته . كانت أساطيل مصر أو ما يعرف بأساطيل الاسكندرية ، تقوم بنصيب فعال في قتال الفرنجة ، الذين كانت مراكبهم متواصلة وكثيرة على الساحل الشامى . فحينما حاصر الفرنجة عكة من البحر والبر ، استدعى صلاح الدين خمسين شينيا من المراكب الحربية الكبيرة ، وعلى ظهرها عشرة آلاف بحار مصرى . بقيادة لؤلؤ الشينخ ، أحد قواد صلاح الدين ، الذي عرف بشجاعته من قبل في أخذ مراكب الفرنجة ، لما أطلقت في البحر الأحمر . كذلك أمر صلاح الدين بتعمير أسطول ثان من مصر ، ليساعد الأسطول الأول ويريه . فكان وجود هذه المراكب الحربية في عكة داعيا إلى تقوية حاميتها ضد المحاصرين ، بالدفاع عنها من ناحية البحر ، أو بالاشتراك مع حاميتها في قتال المحاصرين في البر . إذ كان بحارتها مدربين على القتال البحرى والبرى ، ويسمونهم : بحرى وحرى . وقد كان الأسطول الاسلامى كثيرا ما يخرج من

عكة ، ليغير على مراكب العدو فى عرض البحر ويقطع خطوط تموينه ، وكتب فى ذلك صفحات فخار رائعة . وفى مرة استولى على خمسة مراكب انجليزية وطريدة ، وهذه الأخيرة سفينة صغيرة تستخدم فى حمل الخيل . وأهم من ذلك قيامه بمدح حامية عكة بالرجال والمؤن والأزواد مشتملة على البطس ، وهى من السفن الحربية الكبار مفردتها بطسة ، تشتمل على عدة طبقات ، وعلى قلوب كثيرة ، تقدر بأكثر من أربعين قلعا . وفى مرة تأخرت بطس الأزواد من الاسكندرية ، فعمل صلاح الدين بطسة عظيمة فى بيروت وملأها بالقمح وأصنافه الطعام والأدام والأغنام ، ولكى يوصلها بحارتهما سالمة ، وكانوا من المسلمين والنصارى من أهل بيروت ، لبسوا مسوح الرهبان ورفعوا عليها الصليبان ، فدخلوا عكة سالمين . والعجب العاجب أن لما اشتد حصار الفرنجة على عكة من البحر ، كان صلاح الدين يندب العوام لحمل نفقات الأجناد على أوساطهم ، فنصب الصليبيون لهم الشباك فى الماء لاصطيادهم ، فوقع كثير منهم بين أيديهم .

ولعل أهم عمل قام به الأسطول المصرى ، إقامة البدل الحامية عكة ، وذلك فى أواخر سنة ٥٨٦/١١٩٠ ، وأوائل سنة ٥٨٧/١١٩١ . وفى فصل الشتاء ، سحب الفرنج مراكبهم المحاصرة أمام عكة لهياج البحر ، فأمر صلاح الدين أخاه العادل بمباشرة تغيير الحامية . فجمع العادل عددا كبيرا من المراكب ، نقل عليها زهاء عشرين ألفا من رجال الجيش والبحر . ومع أن صلاح الدين لم يجبر أحدا على دخول عكة بدل الراحلين عنها ، إلا أنه يبدو أن أغلب من دخلها من الجند المصريين ، بدليل وجود كتاب القبط ، الذين كانوا يدفعون لهم النفقة . وعلى النقيض تردد معظم فواد صلاح الدين من الترك والكرد ، فلم يدخل عكة منهم غير عدد قليل .

لا يبلغ عشرين ، على رأسهم سيف الدين المشطوب كبير الأكراد ، وبهاء الدين قراقوش الذى عين حاكما عليها .

ولكن أسطول الاسكندرية لم يكن يستطيع أن يوقف أمداد الفرنجة المتواصلة عبر البحر فى أساطيلهم العديدة ، فطلب صلاح الدين من ملك دولة الموحدين بالمغرب ، أن يشترك بأسطوله فى قطع خطوط أمداد العدو . ولدينا نص رسالتين موجهتين من صلاح الدين الى ملك المغرب أبى يعقوب المنصور بن عبد المؤمن الموحدى ، يطلب فيهما مساعدته ، أورد القلقشندى أحدهما من غير تاريخ ، وأورد أبو شامة الأخرى . ولكن سوء العلاقة بين صلاح الدين وابن عبد المؤمن ، لم يجعل أسطول الموحدين يشترك بمجهود ما ، لأن صلاح الدين لما كان تولى وزارة العاضد ، أرسل مملوكا لابن أخيه اسمه قراقوش التقوى على رأس حملة قوية من الترك « الغز » ، فتح بهم برقة وطرابلس الغرب ، ثم تونس التى أقام الخطبة فيها لصلاح الدين سنة ٥٨٣/١١٨٨ . ولا نعرف سبب إرسال صلاح الدين لهذه الحملة ، ربما حاجته للمال كما يذكر المقرئى ، ولا سيما أن برقة وطرابلس لم يكن فيهما غير عربان من غير سلاح ، أو لرغبته شغل الترك « الغز » فى جيشه لموقفهم العدائى منه ، بسبب غضب نور الدين عليه ، وربما على الخصوص لمساعدة بقايا المرابطين بتونس ، الذين كانوا يدينون بالطاعة للعباسيين ، ضد دولة الموحدين ، التى سيطرت على كل المغرب حتى تونس ، واتخذ ملوكها لقب الخلافة لأنفسهم ، قاطعين صلتهم بالخلافة العباسية . ولدينا اشارات المؤرخين عن طموح خلافة الموحدين الى الاستيلاء على الشرق الاسلامى وبخاصة مصر ، وكانوا يعتبرون كل الملوك غير خلفائهم كفارا . فقاتلت حملة صلاح الدين خليفة الموحدين أبى يعقوب المنصور وهزمته ، وان رجع وهزمها ، بحيث فر قراقوش التقوى بعدها من تونس . وربما أيضا أن أسطول الموحدين لم يشترك

بمجهود ما متعاوننا مع صلاح الدين ، بسبب انشغاله بحرب فرنجة الأندلس .

وقد استفحل الامر على المسلمين بمجيء ملوك أوروبا ، ولا سيما أن البابا كان أرسل الى فرنجة الشام يبعدهم بارسال امدادات كثيرة ، ويدعوهم الى الثأيرة على حصارهم عكة ، ويعلمهم أنه أرسل الى جميع فرنجة أوروبا يأمرهم بالمسير اليهم برا وبحرا . وفعلنا نجح البابا في اصلاح ذات البين بين ملوك أوروبا ، وتوجيههم الى حرب المسلمين . فسمع أن كلا من ملك انجلترا هنرى الثانى «Henri II» وملك فرنسا فيليب أغسطس «Philippe Auguste» . كانا فى حروب مستمرة بسبب ملكية هنرى لنورماندى «Normandie» فى شمال فرنسا ، فانهما اتفقا على دفن الخلاف بينهما ، ومحاربة المسلمين ، ولكن عاد النزاع ، بسبب أن هنرى خلع عن ولاية عهده لصالح ابن آخر ، ابنه الأكبر ريتشارد «Richard» ، الذى عرف فيما بعد بقلب الأسد «Lion Heart» ، لشجاعته وقسوة قلبه . فحارب ريتشارد أباه بمساعدة ملك فرنسا ، وكان قد خطب أخته أليكس Alix فلما توفى هنرى فى سنة ١١٨٩ م ، تولى ريتشارد العرش ، واتفق مع فيليب على استخلاص الأراضى المقدسة . كذلك نجح البابا فى انتهاء النزاع بين فردريك بربروسا «Frederic Barbrosse» ، وبقية أمراء اللومباردين فى ايطاليا ، بقصد محاربة المسلمين .

وقد كان الألمان أول من غادروا بلادهم الى الشرق ، فعبروا وسط أوروبا الى القسطنطينية فى أعداد هائلة بلغت مليون مقاتل « ألف ألف » ، حيث يقول ابن الأثير عنهم : « انهم نوع من الفرنجة شديدى البأس » . وكان للملكهم فردريك خبرة سابقة بحرب

المسلمين ، وذلك حينما اشترك مع عمه الإمبراطور كوفراد الثالث فى الحملة الصليبية الثانية ، فاستعد لهذه الحملة استعدادا كبيرا ، واستكمل نواحى النقص فى الحملة السابقة ، فجهزها بكل ما تحتاج اليه ، مما جعلها شديدة الخطر على مسلمى الشرق . وقد أورد المؤرخ الصليبي ماثيو باريس «Mathieu Paris» نص الكتب المتبادلة بين صلاح الدين وفردريك ، اذ أراد هذا الأخير على طريقة الفرسان ألا يهاجمه قبل أن يدعو الى تسليم الأراضى المقدسة . ولكن صلاح الدين رد عليه برسالة مؤداها أنه سيقاتله بشدة ، الا اذا جنح الى السلم فيسهل لحجابه زيارة بيت المقدس ، ويسمح لندوب له البقاء فيه .

فلما وصل فردريك بجيشه امام القسطنطينية قوبل من ملك بيزنطة اسحق الثانى «Isaac II» - ويسميه العرب ايساكىوس - بنفس العداء الذى قوبل به ملوك الفرنجة العابرين بلاده من قبل . فقد كان اسحق يخاف من الألمان لكثرتهم ، علاوة على أنهم كانوا قد ساعدوا النورمان - وهم فرنجة مثلهم - فى قتال اليونان « الروم » ، ولأن فردريك كان يحمل لقب إمبراطور الدولة الرومانية ، مع أن بيزنطة تعتبر نفسها وارثة الرومان . وفوق ذلك ، كان اسحق قد تقرب من صلاح الدين وحالفه ، منذ أن حارب صلاح الدين الترك السلاجقة فى آسيا الصغرى كما ذكرنا ، فلم يشترك مع فرنجة الشام فى حطين ، وأرسل يهنئه بفتح بيت المقدس ، وأعاد فتح جامع القسطنطينية الذى كان قد أنشئ أيام العباسيين ، حيث أرسل اليه صلاح الدين المنبر والخطيب والمؤذنين والقراء . فلعل اسحق كان يطمع فى الاشراف على كنيسة القيامة ، والأماكن المسيحية فى الأراضى المقدسة . وقد وعد اسحق صلاح الدين ألا يمكن الألمان من عبور بلاده ، الا أن هؤلاء بدأوا حروبهم الصليبية ضده ، وأخذوا رهائنه ، لما أراد منهم ، فأرسل الى صلاح

الدين يذكره بصدافته ، ويعتذر عن عبور الألمان ، ولا يرجو لهم النجاح .

كذلك هيا اضطراب أحوال الترك بآسيا الصغرى تسهيل عبور الألمان فيها فقد ضعفت دولتهم بتقسيم قباچ أرسلان (الثانى) أملاكه بين أبنائه الكثيرين ، بحيث أن ملك الألمان دخل قونية - عاصمتهم - باتفاقه مع ابن قلع الأكبر المسمى قطب ملكشاه ، وأجبر قلع على تقديم الخيل والمؤن والرهائن . وقد كان تراخى قلع فى جهاد الألمان على نقيض ما ورد فى مكاتباته ومكاتبات أبنائه الى صلاح الدين بالتعاقد معه ، بحيث سمى عماد الدين الكاتب مصالحة الترك للألمان وتركهم للجهاد : « بأنه حادث كارث ٠٠٠ فاجع لأهل الحمية فى الدين . والواقع أن ترك آسيا الصغرى ، عرفوا بتراخيهم عن الجهاد ، مع انهم كانوا يملكون مناطق شاسعة مجاورة من الغرب لليونان ومن الشرق لفرنجة الشام ، حتى أن نور الدين عاتب قلع على ذلك . وقد أرسل قلع يعتذر لصلاح الدين بعجزه عن قتال الألمان ، لأن أولاده حجروا عاياه ، وتفرقوا عنه . وعلى النقيض سمعنا أن قبائل تركمانية أخرى ، حاربوا الألمان منذ دخولهم آسيا الصغرى .

فلما وصل الألمان الى بلاد الأرمن عبروها هى الأخرى بأمان ، وهم عناصر مسيحية شرقية تسكن فى مناطق جبال واغوار فى آسيا الصغرى من جهة ساحل البحر الأبيض الى الفرات ، التى عرفت للعرب باسم بلاد سبيس أو سبيسية ، نسبة الى قصبة بلادهم سبيس ، كما عرف لهم زعيم الأرمن باسم ابن ليون أو ابن لاوون (ليون الثانى) ، أو حتى كلب الروم لوجود بلاده على حدود آسيا الصغرى . وكان الأرمن قد فقدوا استقلالهم على يد العرب الأوائل ، ثم استقلوا لما ضعفت الخلافة العباسية ، ولكن السلاجقة استولوا

على أجزاء كثيرة من بلادهم واستقروا فيها . فلما جاء الصليبيون تمكن الأرمن من تكوين مملكة مستقلة من مجموع قلاع عديدة لهم فى جبال طوروس ، عرفت بأرمينية الصغرى ، كانت تششارك الصليبيين فى الاغارة على بلاد المسلمين فى العراق وآسيا الصغرى ، ولا سيما أن عقيدتهم الدينية كانت مثل عقيدة الفرنجة تخالف عقيدة اليونان . فكان ملوك الفرنجة بالشام يمنحون أمراء الأرمن الألقاب ، مما أزعج ملك بيزنطة وجعله يتصل بصلاح الدين ، حيث كان يطالب بملكية بلاد الأرمن . وقد حاربهم صلاح الدين لما سيطر فى الشام ونواحى الجزيرة ، حينما استجار به تركمان آسيا الصغرى ، وأجبرهم على السكون . فلما وصل الألمان الى بلادهم عاونوهم ، وأرسل ملكهم يهدد صلاح الدين ، وبخاصة أن فردريك كان قد وعد لاوون (ليون) بلقب ملك . وعلى النقيض وجدنا بطريك الأرمن جريجوروس يرسل كتابا الى صلاح الدين يخبره بوصول الألمان ، ربما بالاتفاق مع ليون ، الذى كان ينظر الى المستقبل .

ولكن فى أثناء سير الألمان واقترابهم من حدود الشام ، انتشر بينهم المرض والطواعين ، وفكت بهم فتكا ذريعا ، بحيث أنهم ذابوا ذوبان الثلوج . وقد أراد ملكهم السباحة فى النهر - وكان شيخا مسننا - فهلك من برودة الماء ، فزاد هذا فى مصائبهم . وحينما وصلت قلة منهم بقيادة ابنه المسمى فردريك سواب «Frédéric Souabe» الى أنطاكية أول الشام ، نقلوا على أميرها الفرنجى ، فطلب منهم مهاجمة حلب ، التى تجمع فيها عسكر صلاح الدين . ولكنهم جبنوا عن مهاجمتها ، وساروا الى طرابلس التى بيد الفرنجة . حيث وضعوا فى كنيسة رماذ ملكهم فردريك بربروسا ، ومنها ركبوا بحرا الى عكة ، فوصلوها فى سنة ١١٩٠/٥٨٦ . ولم يلبث ابن ملك الألمان أن توفى ، بعد أن حارب المسلمين ، فلم ينل منهم

نصرا ، كما أن بقية الألمان الأحياء لما أرادوا العودة الى أوطانهم ، غرقت بهم المراكب . فكان لعنة الأقدار صاحبت الجيش الألماني ، الذي لو وصل سالما ، لقليل ان الشام ومصر كانتا للمسلمين ، على حد قول ابن الأثير .

وما أن خلاص المسلمون من الألمان ، حتى دهمهم خطر فرنجة غرب أوروبا . فقد جاء الشام ملك فرنسا فيليب أغسطس ، ويسميه العرب فيليب ملك أفرنسيس ، الذي سار الى جنوى ، ومنها ركب البحر الى صقلية ، حيث تقابل فيها مع ملك الانجليز . وقد حدث سوء تفاهم بينهما : فقطع ملك الانجليز خطبته من أخت فيليب المسماة أليكس «Alix» ، وربما أيضا لتدخل أمه التي لم تكن راضية عن زواجه بها . فابحر فيليب بمفرده الى الساحل السوري . فوصله في أسطول صغير لا يتعدى ست مراكب حربية ، وكأنه في نزهة للصيد ، حاملا معه بازا .

أما ملك الانجليز ريتشارد ، ويسميه العرب لييجرت ملك الأنكتير أو الأنكتار ، فقبل أن يرحل الى الشرق ، ترك بلاده في يد أخيه جان «Jean» ، والملكة الوالدة اليانور «Eléonore» ، وأبحر من سواحل جنوب فرنسا في أسطول كبير الى صقلية ، حيث تقابل فيها مع فيليب ، وحدث بينهما سوء تفاهم ، فسيقه فيليب الى الساحل السوري كما ذكرنا . ولكن ريتشارد اضطر الى ان يحارب ملك صقلية ، الذي يبدو أن ملك فرنسا حرضه عليه ، وبسبب أنه أخذ أخته جان «Johane» أرملة ملكها غليوم «Guillaume» ، وكان النورمان حجزوها . وبعدها حملت الرياح أسطوله الى جزيرة قبرص ، التي كان يحكمها يوناني اسمه اسحق Isaac ، استقل بها عن بيزنطة ، وهزم جيشا من قبل ملكها اسحق الثاني بمساعدة نورمان صقلية ، وأعلن نفسه ملكا عليها ،

وربما أيضا كان أهل هذه الجزيرة من اليونان يريدون أن ينعموا بحياة هادئة بعيدة عن الصليبيين والبيزنطيين . فلما جاءها ملك الانجليز ، استقبله اسحق اليوناني بنفس العداء الذي كان يستقبل به ملوك أوروبا من ملك اليونان البيزنطي ، اذ كان اليونان وقتئذ حلفاء المسلمين ضد الأوروبيين . وقد طلب ريتشارد نجدة من فرنجة الساحل في حربه ضد القبارصة ، فأرسل اليه الملك جى اخاه جفرى ، وأخيرا طلب اسحق الصلح ، ولكن ريتشارد غدر به ، واستولى على الجزيرة . ولا شك ان احتلال الانجليز لقبرص ، التي تطل على ثلاث قارات ، يدل على ادراكهم المبكر لأهمية موقعها ، بحيث أصبحت قنطرة لكثير من الحملات في الشرق . وبعد ذلك غادرها ملك الانجليز الى الساحل السوري في أسطول كبير ، قطعه الرئيسية وحدها خمس وعشرون شينيا ، كل منها أشبه بقلعة .

ازاء تهديد الفرنجة الشديدة ندب صلاح الدين رسله الى ملوك المسلمين يحثهم على الجهاد عن الأراضي المقدسة ، وكان ذلك على الخصوص منذ تحرك ملك الألمان بجيشه الكبير نحو الشرق . وقد عرض صلاح الدين على الخليفة الامام الناصر ، الحضور بشخصه لتحميس المسلمين ، على أن يتنازل له عن جميع بلاده ، فظهر صلاح الدين بذلك انكارا للذات ، واخلاصا في الجهاد . ولكن أمراء الجزيرة الزنكيين رفضوا أن يوجد الخليفة بينهم ، ربما للعداء السابق بينهم وبين الخليفة ، كما أن الخليفة نفسه لم يكن متحمسا للانتقال من قصوره ، ليعيش في ميدان القتال . فام يرد الخليفة على دعوة صلاح الدين ، الا بأن أرسل اليه عدة أحمال من النفط ، وتوقيع بماله له عند بعض التجار ، مما جعل صلاح الدين يستاء من تصرف خليفة المسلمين . كذلك لم يستطع سلطان العجم بايران . وأمراء الترك بآسيا الصغرى أن يلبوا نداءه ، لانشغالهم بمسائلهم الشخصية ، واضطراب أحوال دولهم . وعلى العكس كان المدد يأتيه

باستمرار من عسكر مصر على حد قول المؤرخين ، وبمجرد وصولهم ، كانوا يرسلون الى ميدان المعركة المشتعلة ، ومن الأمراء الزنكيين بالجزيرة ، الذين نسوا في جهادهم ، عداوة صلاح الدين للبيت الزنكي .

فلما تكاثرت الفرنجة على عكة في البر والبحر ، ازدادت الأمور سوءا بالنسبة لحاميتها ، وبخاصة منذ أن وصل الأسطول الانجليزي ، الذي أحكم حصارها من البحر ، حتى انه في احدى المرات لما حاولت بطسة مصرية حمل الأطعمة الى حامية عكة ، اضطرت بحارتها وعددهم سبعمائة رجل الى اغراقها والفرق معها . لذلك قرر سيف الدين المشطوب كبير القواد ، وقراقوش حاكم البلدة ، الخروج الى ملك فرنسا ، لتسليم البلد ، على ان يمنح أهلها الأمان . ولا ندرى سبب اختيار المشطوب للملك فرنسا بالذات ، ربما لأن حامية عكة لم تحس بوطاته عليها مثلما أحست بوطاة ملك الانجليز . ومع ذلك فان ملك فرنسا ، رفض منح الأمان لحامية عكة وان سلمت ، بحيث قال المشطوب له مقتظا : « نحن لا نسلم البلد حتى نقتل جميعا » . فكان تصرف ملك فرنسا يدل على غرور وبعد عن المروءة ، على عكس تصرف صلاح الدين ، الذي طالما أسرف في منح الفرنجة الأمان . وبخاصة فرنجة بيت المقدس الذين بلغ عددهم مائة ألف .

ولقد أدرك صلاح الدين ازدياد خطورة الموقف في عكة ، فبذل جهده للتخفيف عنها بمهاجمة الفرنجة باستمرار : فكان كلما زحف الصليبيون على البلدة دقوا كؤوسهم « طبولهم » ، فتدق كؤوس صلاح الدين ليهاجمهم . وفي هذه الفترة الحرجة ، كان عسكر صلاح الدين وقواده ، لا ينامون ويبدلون جهدهم لانقاذ حاميتها . وفي سبيل ذلك ، لجأ صلاح الدين الى حل أخير : بأن عرض على الفرنجة تسليم البلدة ، واطلاق سراح أسراهم ، ورد

صليبيهم المقدس « صليب الصليوت » ، لقاء منح الأمان لحامية عكة . ولكنهم اشترطوا إعادة جميع البلاد التي استولى عليها ، بما فيها بيت المقدس ، مما جعل صلاح الدين يرفض فكرة مصالحتهم نهائيا .

لذلك أصبح سقوط عكة وشيكاً ، ولا سيما أن أسوارها تهدمت تحت رمى منجنيقات الفرنجة الكثيرة ، وكانوا قد نصبوا على موضع واحد ثلاثة عشر منجنيقا . فكان كلما فتحت ثغرة في السور ، سدها رجال عكة بأشلاء الموتى . ولكن لما تهدم أغلب السور ، ودمرت أبراجه ، انحدر الفرنجة نحوه بجموع كثيرة ، ودخلوا البلدة ، ورفعوا راياتهم التي تحمل الصليب عليها . ومع ذلك استمر القتال في الشوارع من بيت الى بيت وعلى الأسطح ، وبقيت بعض مواضع في البلدة ترد بمنجنيقاتها . وأخيرا سمات عكة يوم الجمعة ١٧ من جمادى الآخرة من سنة ٥٨٧/يوليو ١١٩١ . وذلك بعد قتال مرير استمر حوالي ثلاث سنوات ، مما خلد مقاومتها في التاريخ .

فأسرع صلاح الدين بعرض الفداء لعسكره بالمال ، وكان عددهم كبيرا يزيد على عشرة آلاف ، وعلى رأسهم سيف الدين المشطوب ، وبهاء الدين قراقوش . فدخل الفرنجة في مفاوضات . بمقتضاها يطلقون سراح المسلمين لقاء مائتي ألف دينار من ذهب ، ويرد للفرنجة أسراهم ، وصليبيهم المقدس . ولكن الفرنجة رفضوا إعطاء أية ضمانات لتسليم الأسرى المسلمين ، مما جعل صلاح الدين يرفض الاتفاق ، فانتقم ملك الانجليز بقتل ثلاثة آلاف من الأسرى المسلمين . ويبدو من أقوال بعض فرسان الفرنجة أن تصرف ملك الانجليز المشين أسخطهم عليه ، كما أن ملك فرنسا رفض أن يجاريه في قتل أسرى المسلمين . وفيما بعد قدم صلاح الدين فدية مملوكة قراقوش بمبلغ قدره عشرة آلاف دينار ، فلما

باستمرار من عسكر مصر على حدة قول المؤرخين ، وبمجرد وصولهم ، كانوا يرسلون الى ميدان المعركة المشتعلة ، ومن الأمراء الزنكيين بالجزيرة ، الذين نسوا في جهادهم ، عداوة صلاح الدين للبيت الزنكي .

فلما تكاثرت الفرنجة على عكة في البر والبحر ، ازدادت الأمور سوءا بالنسبة لحاميتها ، وبخاصة منذ أن وصل الأسطول الانجليزى ، الذى أحكم حصارها من البحر ، حتى انه فى احدى المرات لما حاولت بطسة مصرية حمل الأطعمة الى حامية عكة ، اضطرت بحارتها وعددهم سبعمائة رجل الى اغراقها والغرق معها . لذلك قرر سيف الدين المشطوب كبير القواد ، وقراقوش حاكم البلدة ، الخروج الى ملك فرنسا ، لتسليم البلد ، على ان يمنح أهلها الأمان . ولا تدرى سبب اختيار المشطوب لملك فرنسا بالذات ، ربما لأن حامية عكة لم تحس بوطاته عليها مثلما أحست بوطاة ملك الانجليز . ومع ذلك فان ملك فرنسا ، رفض منح الأمان لحامية عكة وان سلمت ، بحيث قال المشطوب له مغتظا : « نحن لا نسلم البلد حتى نقتل جميعا » . فكان تصرف ملك فرنسا يدل على غرور وبعد عن المروءة ، على عكس تصرف صلاح الدين ، الذى طالما أسرف فى منح الفرنجة الأمان . وبخاصة فرنجة بيت المقدس الذين بلغ عددهم مائة ألف .

ولقد أدرك صلاح الدين ازدياد خطورة الموقف فى عكة ، فبذل جهده للتخفيف عنها بمهاجمة الفرنجة باستمرار : فكان كلما زحف الصليبيون على البلدة دقوا كؤوسهم « طبولهم » ، فتدق كؤوس صلاح الدين ليهاجمهم . وفى هذه الفترة الحرجة ، كان عسكر صلاح الدين وقواده ، لا ينامون ويبدلون جهدهم لانقاذ حاميتها . وفى سبيل ذلك ، لجأ صلاح الدين الى حل أخير : بأن عرض على الفرنجة تسليم البلدة ، واطلاق سراح أسراهم ، ورد

صليبيهم المقدس « صليب الصليوت » ، لقاء منح الأمان لحامية عكة . ولكنهم اشترطوا إعادة جميع البلاد التى استولى عليها ، بما فيها بيت المقدس ، مما جعل صلاح الدين يرفض فكرة مصالحتهم نهائيا .

لذلك أصبح سقوط عكة وشيكا ، ولا سيما أن أسوارها تهدمت تحت رمى منجنيقات الفرنجة الكثيرة ، وكانوا قد نصبوا على موضع واحد ثلاثة عشر منجنيقا . فكان كلما فتحت ثغرة فى السور ، سدها رجال عكة بأشلاء الموتى . ولكن لما تهدم أغلب السور ، ودمرت أبراجه ، انحدرت الفرنجة نحوه بجموع كثيرة ، ودخلوا البلدة ، ورفعوا راياتهم التى تحمل الصليب عليها . ومع ذلك استمر القتال فى الشوارع من بيت الى بيت وعلى الأسطح ، وبقيت بعض مواضع فى البلدة ترد بمنجنيقاتها . وأخيرا سادت عكة يوم الجمعة ١٧ من جمادى الآخرة من سنة ٥٨٧/ يوليو ١١٩١ . وذلك بعد قتال مرير استمر حوالى ثلاث سنوات ، مما خلد مقاومتها فى التاريخ .

فأسرع صلاح الدين بعرض الفداء لعسكره بالمال ، وكان عددهم كبيرا يزيد على عشرة آلاف ، وعلى رأسهم سيف الدين المشطوب ، وبهاء الدين قراقوش . فدخل الفرنجة فى مفاوضات . بمقتضاها يطلقون سراح المسلمين لقاء مائتى ألف دينار من ذهب ، ويرد للفرنجة أسراهم ، وصليبيهم المقدس . ولكن الفرنجة رفضوا إعطاء أية ضمانات لتسليم الأسرى المسلمين ، مما جعل صلاح الدين يرفض الاتفاق ، فانتقم ملك الانجليز بقتل ثلاثة آلاف من الأسرى المسلمين . ويبدو من أقوال بعض فرسان الفرنجة أن تصرف ملك الانجليز المشين أسخطهم عليه ، كما أن ملك فرنسا رفض أن يجاريه فى قتل أسرى المسلمين . وفيما بعد قدم صلاح الدين فدية مملوكة قراقوش بمبلغ قدره عشرة آلاف دينار ، فلما

فك أسره في شوال من العام التالي سنة ١١٩٢/٥٨٨ ، فرح به صلاح الدين فرحا شديدا . كذلك تمكن سيف الدين المشطوب الهروب من الأسر ، فوصل الى القدس في جمادى الآخرة من نفس هذا العام ، ولم يلبث أن توفي .

بعد هذا النصر المسيحي ، أصبحت عكة أهم قواعد الفرنجة بالشام ، تأتيها مراكبهم الكبيرة ، حاملة الامدادات الكثيرة . ويبدو أن الفرنجة أعادوا اليها طائفة فرسان الاسبتارية للدفاع عنها . وهم الذين قضى عليهم صلاح الدين في حروبه ، ولكنهم أصبحوا يعرفون باسم فرسان القديس يوحنا «Saint Jean» ، فسميت المدينة باسمهم «Saint Jean d'Acre» . ولقد استمر الصليبيون الى عهد سلاطين المماليك ، يستخدمون عكة كقاعدة أمامية في حروبهم ضد المسلمين ، يصبون منها عليهم جام تعصبهم ، الى أن استولى عليها السلطان المملوكي الأشرف خليل سنة ١٢٩١/٦٠٠ . فأعادها الى حظيرة بلدان الاسلام .

ولحسن الحظ أن الفرنجة تمهلوا بعض الوقت لسوء التفاهم الذي دب بين ماوكلهم في الأراضى المقدسة . فقد طالب كونراد - الماركيس - بعرش مملكة بيت المقدس بعد موت سيبلا ، التي لم تترك وريثا ، ولأنه تزوج بأختها الصغرى المسماة ايزابيل «Ysabelle» بعد طلاقها - على ما يبدو - برغبتها من زوجها هنفري «Hanfroi» ، الذي لم تكن له شخصية لينافسه ، فانتقل الملك الى الصغرى بوفاة الكبرى : اذ كانت كلتاهما أخت بودوان الرابع (أوبلدوان) ، وأن جى نفسه كان قد أخذ الملك بسبب زواجه من سيبلا . وبينما أخذ ريتشارد جانب جى ، الذي كان قد تقرب اليه بارسال مدد ضد القبارصة مع أخيه ، فان فيليب أخذ جانب كونراد الذي وضع صور تحت حمايته .

وفي الوقت الأخير من حصار عكة ، استشعر كونراد الغضب من ريتشارد ، فانسحب الى صور . فاضطر ريتشارد الى التدخل لحل مسألة عرش بيت المقدس في مجمع من القسوس والفرسان ، وذلك بأن يكون كونراد وريث جى ، وأنه اذا مات الاثنان ورت هو هذا العرش . وقد كان استئثار ريتشارد بكل شيء ، ونقضه اتفاقه مع فيليب في اقتسامه كل ما يفتح سواء في قبرص أو في عرش مملكة بيت المقدس . سببا جعل فيليب - بعد فتح عكة - يغادر الأراضى المقدسة غاضبا . وسيكون هذا الافتراق من أسباب اشغال حرب المائة عام الرهيبة بين المملكتين فيما بعد .

ولكن ازداد خوف كونراد من ريتشارد بمغادرة فيليب الأراضى المقدسة . ولعله فعل مثلما فعل أمير طرابلس - القمص أو القمس - من قبل ، فاتصل بصلاح الدين وتصلح معه ، ليعارض به أطماع ملك الانجليز ، الذي كان يرغب في الانفراد بملك الأراضى المقدسة . فجر هذا التصرف على ما يبدو الى قتله بتحريض من ملك الانجليز ، ولاسيما أن كونراد كان شخصية هامة ، فيفضل ثباته في صور تحولت هزيمة الفرنجة الى نصر ، بعد أن كاد صلاح الدين يلتقى بهم الى البحر . ومن ناحية أخرى ينسب بعض المؤرخين قتله الى فدائيه الاسماعيلية بالشام ، الذين أرادوا خدمة صلاح الدين بأن يوقعوا بين الفرنجة . ويقول عماد الدين الكاتب عن ذلك : لم يعجبنا قتل الماركيس في هذه الحالة ، لأنه كان عدو ملك الانجليز .

وفعلا ظهرت أطماع ريتشارد في السيطرة على صور بمجرد قتل الماركيس ، فعين هنري دي شامبين «Henri de Champagne» - الكندهرى - الذي أسرع بالذهاب الى صور بعد قتل كونراد ، وتزوج بايزابيل مع أنها كانت حاملا - برواية

مؤرخى العرب ، ليصبح صاحب حق فى عرش مملكة بيت المقدس . وكان هنرى قد وصل الى الساحل الشامى قبل ريتشارد ، وكان من أسباب تقوية المحاصرين أمام عكة كما ذكرنا . ونجد ريتشارد يعوض جى عن حقه فى مملكة بيت المقدس ، بإعطائه قبرص ، التى باعها للدواوية بعد مجيئه لحصار عكة ، على أن يدفع جى المال الذى أخذه ريتشارد من الدواوية .

ولقد استفاد صلاح الدين من تمهل الفرنجة فى تدبير أمر مقاومتهم . فكان من رأيه أن يقاتلهم فى عسقلان ليشغلهم عن التوغل نحو بيت المقدس ، وهى مدينة حصينة جدا منذ أيام الفاطميين ، بأعلى فلسطين على ساحل البحر قرب غزة ، كانت اشتهرت بمقاومتها للفرنجة نصف قرن قبل أن يستولوا عليها ، وكانت خطرا على مملكتهم الناشئة فى بيت المقدس . ولكن قواده عارضوا خطته ، وحرصوه على هدم عسقلان وغيرها من الحصون ، وترك الساحل ، واتخاذ خط دفاعى داخل البلاد .

كذلك أسرع صلاح الدين بالذهاب الى القدس ، لبشرى على تقوية تحصيناتها . ولدينا رخامة من سنة ١١٩١/٥٨٧ ، تبين أنه جدد السور وعمره بالأبراج ، وأمر بحفر خندق غير الذى كان موجودا . وقد هرع الى صلاح الدين بالقدس ، متخصصون للقيام بالتحصينات ، كما استخدم أسارى الفرنجة . وكان من المناظر المؤثرة اشتراك السلطان وأولاده والأمراء والقضاة والصوفية والزهاد فى حمل الحجارة فى القفاف على الحيول . كذلك قوى صلاح الدين بيت المقدس بعسكر مصر ، الذين أصبحوا المنقذين للمسلمين من كل خطر ، ويرجع اليهم فضل استنقاذه من الفرنجة .

على العموم انتقد الفرنجة تمهل ريتشارد فى مواصلة القتال بعد الانتصار فى عكة ، ومنهم كونراد الذى كتب اليه قبل أن

يقتل ، يعيب عليه أن يسمح للمسلمين بتخريب عسقلان ، ولا يسرع الى الاستيلاء عليها . فعلا لما تحرك ريتشارد للهجوم على مدن الساحل ، وجد أغلبها مهتما ، كما وجد مقاومة شديدة من جانب المسلمين ، وبصفة خاصة فى مدينة يافا ، الواقعة على ساحل بحر الشام بجوار عكة ، حيث كاد يؤخذ فيها أسيرا . فكان ريتشارد فى أثناء زحفه ، لا يفارق البحر ، وينتقل من بئر الى بئر ، وخصوصا ان المياه قريب بعضها من بعض ، حتى وصل الى الأراضى المصرية ، وصادم عساكر مصريين قاصدين لصلاح الدين وهزمهم . وقد كان هدفه احتلال ساحل الشام كله ، وقطع الطريق بين الشام ومصر ، وذلك قبل أن يهاجم بيت المقدس . فاستمر ريتشارد على معظم الساحل حتى حدود مصر ، وأخذ فى تعمير قلعة عسقلان ، كما أنه وصل فى اغاراته الى قريب من بيت المقدس عدة مرات . ولما حاول صلاح الدين استعادة يافا ، حضر اليها ريتشارد واضطره الى الانسحاب .

وقد أظهر ريتشارد فى حروبه مع المسلمين شجاعة ممتازة ، تحدث عنها أغلب المؤرخين ، سواء آكانوا من الفرنجة أم من المسلمين . فوصفه ابن الأثير بقوله : انه كان رجل زمانه شجاعة ومكرا وجلدا وصبرا ، أما ابن شداد فيقول عنه : انه عظيم الشجاعة ، قوى الهمة ، وله جسارة على الحروب . ويقول عنه تشرشل فى كتابه : « أبطال التاريخ » ، انه أفرس الفرسان فى العصور الوسطى ، حيث كانت له سهولة فى استخدام السلاح ، فكان يقتل المسلم بخطبة من درعه . ولعل ريتشارد قد استحق بشجاعته هذا التلقب ، الذى أصبح يعرف به : ريتشارد قلب الأسد . «Richard the Lion Heart»

ولكن ريتشارد ، الذى طالت غيبته عن بلاده ، سمع أخبارا

سيئة من أن أخاه يحاول اغتصاب مملكته أثناء غيابه بتحريض فيليب ، فأرسل يطلب الصلح . والواقع أنه منذ حضوره الى الشام دخل في مفاوضات مع صلاح الدين ، ربما ليعارض به ملك فرنسا ، أو ربما خديعة ومكرا . بقصد بليلة خطط صلاح الدين . ففي أثناء حصار عكة مرض ريتشارد ، وكان في حاجة الى بعض الدجاج والفواكه والثلج ، فأرسل اليه السلطان ما يريد منها ، ويمكن رسله من زيارة الأسواق الإسلامية . وبعد نصر الفرنجة في عكة . عرض ريتشارد على صلاح الدين رد البلاد جميعها ، فرفض صلاح الدين . ويبدو أن ريتشارد في أثناء هذه المفاوضات اتصلت صداقته بالعدل أخى صلاح الدين ، حتى أنه طاب منه مرة أن يسمعه غناء المسلمين . فأحضر له العدل مغنية تضرب بالعود ، فغنت له ، فاستحسن ذلك . وبعد رحيل فيليب ، عرض ريتشارد على صلاح الدين أن يوقف القتال ويكون صلحا عاما بينهما . ويتزوج العدل من أخته جان ، أرملة ملك صقلية غليوم ، على أن يقيم العدل وزوجته في القدس . وأن يشمل ملكهما ما بيده المسلمين والفرنج . وقد قبل صلاح الدين ، إلا أن ريتشارد تحت تحريض رجال الدين اعتذر . كذلك أرسل ريتشارد في طلب المناصفة على البلاد سوى القدس ، ولكن السلطان أبى ورعى أن يأخذوا ما في أيديهم ، وأن ينزلوا له عن يافا وعسقلان .

ولما وجد ملك الانجليز ألا سبيل الى اختراق خط دفاع صلاح الدين عن القدس ، وأن الامداد الواصلة من أوروبا قلت ، قرر التفاوض جديا في الصلح . فرفض صلاح الدين في أول الأمر خوفا من مكروه الذى تعود منه ، ولأنه كان يرى أن الجند المسلمين مارسوا الجهاد ، ولا يضيرهم الاستمرار فيه . ولكنه قبل تحت الحاح أمرائه ، ولا سيما أن البلاد قد عانت الأهوال ، وفي حاجة الى اصلاح ، وأن الجند قد تعبوا . فوعدت المصالحة لمدة ثلاث سنين

وثمانية أشهر ، على أن تكون هدنة عامة فى البر والبحر والسهل والوعر ، وذلك يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨ / سبتمبر سنة ١١٩٢ . وقد نص فى الصلح على أن يحتفظ كل فريق بما فى يده ، على أن تخرب عسقلان التى كان ملك الانجليز حصنها ، بإشراف لجنة من الفرنجة والمسلمين ، وتبقى فى أيدي المسلمين أرضا منزوعة السلاح : (No man's land) ، وأن يسمح للحجاج النصارى بالوصول الى بيت المقدس . كذلك دخلت امارة انطاكية وطرابلس التابعة لها فى الصلح ، وحضر أميرها الى بيروت ومعه عدد كبير من أمراء امارته ، فأظهر له السلطان البشاشة ومنحه التشاريى ، كما وافق على الصلح ، أمير صور الجديد - هنرى - الذى أصبح أكبر أمراء الفرنجة فى الساحل الشامى . وبمقتضى هذا الصلح لم يبق للمسلمين على الساحل الشامى غير نطاق ضيق يشمل صيدا وبيروت وجبيل ، الا أنهم أبقوا على معظم داخلية البلاد بأيديهم ، وأبعدوا خطر الفرنجة عن مصر ، واحتفظوا ببيت المقدس .

وقد كان اقرار شروط الصلح بداية لصلات المودة ، فاختلط العسكر ، واختلطت التجارة . وقد أمر صلاح الدين بالمتابعة فى الجند : أن الصلح قد انتظم فمن شاء من بلادهم أن يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم فليفعل . بذلك وصل الحجاج الى القدس ، وزاروا كنيسة القيامة المقدسة ، ويبدو أن ملك الانجليز كان سيء القصد كعادته ، فأرسل الى السلطان يطلب منه الا يسمح للنصارى بالحج الا باذن منه . ولكن السلطان الذكى رفض ، حتى لا يجعل له بمقتضى هذا الحق أية سيطرة ولو معنوية على بيت المقدس ، وأيضا خوفا من غضب الحجاج النصارى - وهم من أجناس مختلفة - وعودتهم الى اثاره أمهم ضده . ولا يبدو أنه بعد هذا الصلح أو قبله اجتمع ريتشارد مع صلاح الدين فى مقابلة ، وانما كان التفاوض بينهما عن طريق الرسل .

ومصادقتهما على الصلح عن طريق أخذ الرسل ليد السلطان وريتشارد ، وذلك لأن هذا الأخير رفض أن يحلف يمين الوفاء ، بحجة أن الملوك لا تحلف .

وبعد الصلح عاد ملك الانجليز الى بلاده عن طريق ألمانيا ، ولكنه أسر عاما كاملا ، ولم يمنح حريته الا بعد أن جمع له رجال الكنيسة مالا كثيرا . أما صلاح الدين ، الذي لم يطمئن الى نوايا الفرنجة ، فقد رجع الى مدينة القدس وأعاد تقوية حصونها ، ثم دخل دمشق بعد غييبته عنها أربع سنين . فاستقبل فيها استقبال البطل المظفر ، واحتفل بذلك عدة أيام ، وهو الذي جعل منها المركز الأول لمحاربة الصليبيين .

ولكن صحة السلطان كانت قد تأثرت بهذا الجهاد المستمر ، فلم يلبث فيها الا وقتا قصيرا حتى وافته المنية بعد مرض حاد أخضه في رأسه ، وذلك في ليلة الأربعاء سابع عشر من صفر سنة ٥٨٩/٤ مارس ١١٩٣ ، وله من العمر سبع وخمسون سنة . فكان موته يوما مشهودا ، لم يصب الاسلام بمثل له منذ الخلفاء الراشدين ، حتى خيل أن الدنيا كلها تبكى في صوت واحد ، على حد قول المؤرخين . فشيعته زفرات الباكين وعويلهم ، حيث حمله العلماء الذين كان يحبهم ويحبونه - في تابوت على أعناقهم ، ليدفن في قلعة دمشق . وبعد ذلك بنى ابنه الأفضل مقبرة خاصة شمال جامع دمشق ، لا تزيد عن خمسة أمتار طولاً في مثلها عرضاً ، فنقل اليها السلطان في سنة ١١٩٦/٥٩٢ . وقد قال عماد الدين الكاتب في مناسبة موت صلاح الدين : « مات بموته الرجال ، وأدلهمت الآفاق ، وفجع الزمان بواحد وسلطان ، ورزى الاسلام بمشيد أركانه » .

ولقد ترك السلطان الكبير بموته فراغا كبيرا في العالم الاسلامي ، الذي فقد بمنله وناصره : فبعد موته انقسمت امبراطوريته التي امتدت من طرابلس الغرب الى ديار الجزيرة بين أبنائه الكثيرين ، إذ خلف صلاح الدين سبعة عشر ولدا ذكرا غير الاخوة وأولاد العم ، وأولاد شيوخه . فوقع الحلف بينهم ، كما أن أمراء الزنكيين عملوا على الاستفادة من ظروف موته للخروج عن سيطرة الايوبيين . وكانوا جميعا يملؤهم الحقد والغضب والرغبة في السلطان ، ولكن روح صلاح الدين ومبادئه كانت لا تلبث أن تعود اليهم كلما ظهر خطر خارجي ، فيستجوبون في القضاء عليه . بل أن روحه كانت كثيرا ما تعود الى حكام الاسلام من غير أهله ، في كل مناسبة يهددهم خطر خارجي .

ولدينا عدة تصور لصلاح الدين لا يعرف مصدرها ، وإن كان يبدو أنها من تصوير الفرنجة ، لأن المسلمين كانوا يكرهون التصوير ، ولأن بطريك بيت المقدس لما أثار أوربا ضد صلاح الدين ، كانت معه صورة لعربي يضرب المسيح . ويبدو أن شكل صلاح الدين كان معروفا للأوروبيين ، حتى أن الشاعر دانتي Danti ميزه في اعتاب الجحيم المسمى « النبو » . مع حكماء العالم القديم وأبطاله . ومن ناحية أخرى ، قد تكون من تصوير القبط المصريين ، الذين كانوا يضعون صورته بجانب الآنية المقدسة في الكنائس ، تقديرا لحكمة العادل ، وقد وجد أحد المستشرقين الروس صورته في إحدى أديرتهم . فقد يكون فن التصوير بدأ في هذا العصر يأخذ طريقه الى جانب الفنون الأخرى في بلاد الاسلام . فيظهر صلاح الدين في هذه الصورة وسيما مهيما ، هادي الوجه واضح الجبين ، ذا عينين ثاقبتين ، وأنف عرج معوج ، ولحية طويلة . ولعله كان به عرج ، بحيث لم يسلم من هجاء شاعر خبيث ، نفاه صلاح الدين الى الهند بسبب هجائه له .

الخاتمة :

لا ريب ان صلاح الدين مثل للمشرقي الطموح ، الذي استطاع ان يحقق أهدافا عالية ، جعلت منه شخصية تصنع التاريخ . فهو لم يرث ملكا ، وانما تدرج من رئيس للمشرطة بدمشق ، الى قائد في حملة عمه شيركوه ، الى وزير لخليفة مصر ، الى نائب لسلطان الشام ، ثم الى سلطان يحكم امبراطورية واسعة في الشام ومصر والجزيرة ، والحجاز واليمن ، وبرقة وطرابلس والنوبة . ويكون لنفسه فيها أسرة حاكمة عرفت باسمه أو لقبه أو اسم أبيه أو أصله : الصلاحية ، أو الناصرية ، أو الأيوبية ، أو الأكراد . ونرى في تاريخه أيضا ارتباطا القدر بحياة الانسان وتصرفاته ، فهو على حسب ملاحظة ابن الأثير حصل لنفسه ولأعقابه على الملك مع ان الملك في أسرته بدأ بعمه شيركوه ، مثلما حدث من قبل في التاريخ ، فانتقل الملك من أعقاب معاوية الى بني مروان من بني عمه ، ثم من العباس الى ذرية المنصور أخيه ، وغير ذلك .

فقد شعر صلاح الدين الطموح بالمذلة من جراء مجيء الأوربيين - الفرنجة - يستعمرون في الشرق باسم الدين ، فوضع نصب عينيه ان يكون الشرق لأهله . ولكنه وجد دول الشرق متنازعة متنافرة ، فوجه همه الأول الى تكوين جبهة متحدة تجمعهم ، ليواجهوا عدوهم العتيق ، الذي استفاد من تشتتهم ، حيث يظهر حياسته فيما كان يكتبه الى ملوك الاسلام ، وبخاصة الى خليفة المسلمين

بالعراق . والواقع ان دعوة صلاح الدين للتكامل ، لم يكن وراءها تعصب ديني ضد النصارى كما هو الحال بالنسبة للفرنجة ، وانما كان قصده تجمع سكان الشرق الذين كان أغلبهم من المسلمين لطرد الغزاة الأجانب . واذا كانت دعوته قد وجهت باسم الاسلام ، فلان أساس طابع العصر ديني ، ولأن الاسلام هو المسيطر في بلاد الشرق . فمنذ الزمن القديم وتتحده بلاد الشرق بجميع عناصرها ضد الغزاة ، في عهد الفراعنة ، وحتى بعد عصر صلاح الدين الى وقتنا الحديث .

حقا انه اضطر لتحقيق هذا التكامل الى استخدام القسوة الشديدة في أول الأمر وبخاصة في مصر ، التي قاوم أهلها من المسلمين الشيعة والقبط حكمه العسكري ، الذي استعان في توطيده بعناصر من الكرد والترك الغرباء عنهم ، كما قاتل أمراء البيت الزنكي ، بما فيهم ابن نور الدين ، صاحب نعمته . كذلك لم يكن يسمح للمفكرين بالفكر الحر باظهار آرائهم التي تعارض جماعة أهل السنة ، خوفا من تصدع الوحدة التي تقوم على أساس هذا المذهب : فبأمره قتل السهروردي المتصوف والفيلسوف المعروف صاحب الرأي الحر ، الذي لا يتذلل الا لله . ولكن سرعان ما أدركت شعوب الشرق ، بعناصرها المختلفة من مسلمين ونصارى ، وحكام ورعايا ، نبيل أهدافه ، فضلا عن أن القدر كان في ركابه ، فاقبلوا على الانضواء تحت زعامته .

فلما اطمأن الى تضامن الشرقيين ، عمل على بث روح النضال بينهم ، وهم الذين وصفوا بأنهم أصحاب اذعان للقضاء ، واستسلام للقدر . ولحسن الحظ أن صلاح الدين ، كان يتمتع بروح مكافحة . لا يستقر لها بال حتى تحقق أهدافها . ولقد هجر في مجده الجهاد أهله وأولاده ووطنه وراحته ، ليقنع بالعيش في ظل خيمة في واحة الوعي ، وكان شجاعا قوى النفس ، عظيم الثبات ، لا يقلقه

أى أمر إذا اشتد الخرب : يطوف بين العسكر ، ويأمر بالتقدم والوقوف ، ويدخل صفوف العدو . ففى حكمه الذى استمر أربعاً وعشرين سنة : أمضى منها ست عشرة سنة فى الحملات ، وبذلك أعاد المشرقيين ذكرى قوادهم العظام ، الذين يعيشون على رأس جنودهم فى الميدان ، يشاركونهم الأخطار ، وهذه صفة هائلة .

كذلك خلق صلاح الدين المثالية فى حكم شعوب الشرق . الذين كان حكمهم بما فيهم الخلفاء ، قد بهرتهم الأموال وأبهة السلطان ، بحيث إن الشرق اشتهر بالترف والبذخ ولين الحياة . فقلد تميز صلاح الدين فى عيشته من بين ملوك عصره بالبساطة ، وبعدم عين أبهة الملوك ، فلم يكن السكتى فى القصور ، وكان يلبس ملايس مصنوعة من الكتان والقطن والصوف وكان يعتبر نفسه وأسرتة خزنة المسلمين وحراساً لأموالهم . والدليل على هذه المثالية ، أنه فى مرة رأى عماد الدين الكاتب يكتب من دواة محلاة بالفضة فأنكرها ، كما أنه عند وفاته لم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ولا شيئاً ، ولم يبق فى خزانته إلا سبعة وأربعون درهماً : فسيرته أعادت للمسلمين ذكرى عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وكلاهما أصبحت سيرته فى عداد الأساطير .

وفوق ذلك ، كان مثلاً للحكام المقدرين لمسؤوليتهم ، ينجح التدين ، ويسعى الى التعلم . فكان يصلى غالباً فى جماعة ويصوم كثيراً مع ضعف بنيتة ، ويسمى نفسه : خادم الحرمين الشريفين ، بحيث عده الناس من أولياء الله ، الذين يتبرك بهم . كذلك أقبل على تفهم أصول دينه ، وقام بالرحلة الى الاسكندرية ، لسماع الحديث على أكبر علمائها أمثال أبى الحافظ السلفى وأبى الطاهر بن عوف وغيرهما من المتفهمين فى المذهب الشافعى ، وهو المذهب الذى تغضب له ، كما كان كثير الاطلاع على أنساب العرب ووقائعهم

وسيرهم . فكان يتعلمه على العلماء محافظاً على تعاليد ملوك المسلمين ، فى توفيرهم العلم والعلماء .

وقد أوجدت مبادئ صلاح الدين ثمرها فى قيام أهل الشرق كرجل واحد للنضال ضد المستعمر الأجنبى المتعصب . فتمكنوا من تخليص الأراضي المقدسة ، والتغلب على أعتى الجيوش الصليبية بما فيها الألمانية والانجليزية والفرنسية . إذ يقول ابن الأثير على لسان أحد كبار الفرنجة ان من خرج منهم - من الفرنجة - فى البحر كانوا ستمائة ألف رجل . لم يعد منهم الى بلادهم الا واحد من كل عشرة . بعضهم قتله المسلمون أو غرق فى البحر أو مات بالمرض . فكان لهذه الضربات القاصمة على يد صلاح الدين أثرها فى درء خطرهم عن الشرق فترة طويلة لم تتجدد الا فى العصر الحديث فى شكل استعمار صريح ، وذلك لأن الشرفيين كانوا قد ناسوا مبادئه .

ولا مراء فان شخصية صلاح الدين لقيت الاعجاب الشديد على مر الزمان ، وأصبح اسمه يدل على الزعامة الرشيدة ، بحسب يقول الحنبلى فى كتابه : « شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب » . جمعت سيرته ليقتنى بها الملوك كما أصبح قبره فى كل وقت مزار رجال الوطنية ، الذين يبتغون أهداف صلاح الدين . كذلك لقيت مآثر صلاح الدين الاحترام لدى أعدائه ، فمن أقوال أحد كبرائهم له : أنت سلطان عظيم ، وملك كريم ، وملك رحيم وقد شاع عدلك ، وذاع فضلك ، وقهر سلطانك ، وظهر احسانك .

كما اعتبره معاصرينا تشرشل عند كلامه عن سير أبطال بلاده من اعظم ملوك الأرض سياسة . بل ان أعداء الشرق الحديثين لما استعجروه . كانوا يقدرون ما حققه صلاح الدين فى جهاده للصليبيين ، والمبادئ التى بثها بين أهل الشرق : فالمرشال للنبي

«Allenb» ، قائد الجيوش البريطانية في الشرق ، حينما وصل الى القدس قال : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » ، اشارة الى أنها ضاعت من الأوربيين باستيلاء صلاح الدين عليها ، الى أن عادوا اليها ، كما قال الجنرال الفرنسي جورو «Gouraud» ، أمام قبر صلاح الدين حينما دخل سورية : « قد عدنا يا صلاح الدين » .

وأخيرا أرجو بهذا العرض لسيرة البطل الخالد صلاح الدين ، أن أكون - من خلال سيرته المثيرة ، وتاريخه الحافل - قد وفقت الى استخلاص ما في حياته من دروس وعظات ، وأن أكون قد جلوت صورة الشرق اللامعة حينما يجد الزعيم الكفء والقائد المخلص ، فينطلق الى غايته من المجد والقوة والعزة والسلطان .

الفهرس

٥	تقديم
٧	تمهيد
٩	الفصل الأول : أحوال المسلمين السياسية
٤٣	الفصل الثاني : ظهور صلاح الدين
٦١	الفصل الثالث : قضاؤه على الخلافة الفاطمية
٨١	الفصل الرابع : قضاؤه على الدولة الاتابكية
٩٩	الفصل الخامس : حملاته ضد الصليبيين
١٤٨	الخاتمة

صدر من هذه السلسلة

- ١ - مصطفى كامل في محكمة التاريخ
د . عبد العظيم رمضان
- ٢ - علي ماهر
اعداد رشوان محمود جاب الله
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة
اعداد عبد السلام عبد الحليم عامر
- ٤ - التيارات الفكرية في مصر المعاصرة
د . محمد نعمان جلال
- ٥ - غارات أوربا على الشواطئ المصرية في العصور الوسطى
علية عبد السميع
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر
لمعى المطيعى
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي
د . عبد المنعم ماجد

العدد القادم

- رؤية الجبرتي لازمة الحياة الفكرية في عصره .
د . على بركات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٩٨٨ / ١٩٨٧

ISBN ٥ - ١٤٧١ - ٠١ - ٩٧٧ -

الدراسة التي نقدمها في هذا العدد من السلسلة ، كتبها الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد ، أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب جامعة عين شمس ، وصاحب العديد من الدراسات التاريخية في مجال تخصصه ، التي تجعل منه واحدا من أبرز مؤرخى التاريخ الإسلامى في مصر . وهى دراسة جادة رجعت فيها الدكتور عبد المنعم ماجد إلى عدد ضخم من المصادر الإسلامية الأصلية ، وأستند فيها إلى الكثير من الأسانيد التاريخية ، وقد عالج فيها أحوال المسلمين السياسية قبل مجيء صلاح الدين الأيوبي ، ثم تناول ظروف ظهوره على المسرح السياسى ، وقضائه على الخلافة الفاطمية ، التي ترددت في الضعف والفساد حتى أستعانت بالصلبيين ، ثم قضاه على الدولة الأتابكية ، ووراثته ملكها ، وتكوينه أكبر امبراطورية في الشرق . ثم تفرغه لقتال الصليبيين ، وتغلبه على أعق الجيوش الأوروبية ، وتخليصه الأراضى المقدسة ، وإبعاده خطر الفرنجة على مصر .

ويقضى أن القارئ سوف يستمتع بهذه الدراسة التاريخية القيمة .